الأزمة الفكرية المعاصرة

تشخيص ومقترحات علاج

الطّبْعَة الرّابعَة

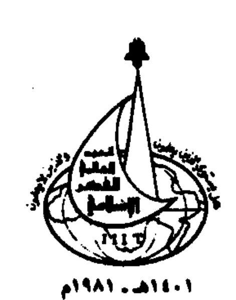
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد تعبر عن
آراء واجتهادات مؤلفيها

نشر وتوزيع:

الدار العالمية للكتاب الاسلامي

نشر وتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي بسبعين لغة



ص . ب : ٥٥١٩٥ ـ الرياض ١١٥٣٤
الرياض ـ هاتف: ٤٦٥٠٨١٨ ـ ٤٦٤٧٢١٣ ـ فاكس: ٤٦٣٣٤٨٩ (١ ـ ٩٦٦)
جدة ـ هاتف وفاكس: ٦٨٧٣٧٥٢ ـ ٢ / الخبر ـ هاتف وفاكس: ٨٩٤٥٨٢١ ـ ٣

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

هيرندن ـ فيرجينيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية

الأزمة الفكرية المعاصرة

تشخيص ومقترحات علاج

د. طه جابر العلواني

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

سلسلة المحاضرات (١)

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

Al 'Alwānī, Ṭāhā Jābir Fayyāḍ. 1935 (1354)–
Al Azmah al fikrīyah al mu'āṣirah : tashkhīṣ wa muqtaraḥāt 'ilāj / Ṭāhā Jābir al 'Alwānī.
p. 64 cm. (15 x 22½) – (*Silsilat al muḥāḍarāt* : 1)
Romanized record.
ISBN 1-56564-041-1 :
1. Islam–20th century. 2. Islamic learning and scholarship–Philosophy. 3. Islam–Education–Philosophy. I. Title.
BP163.A626 1989 [Orien Arab] 89-7434
CIP

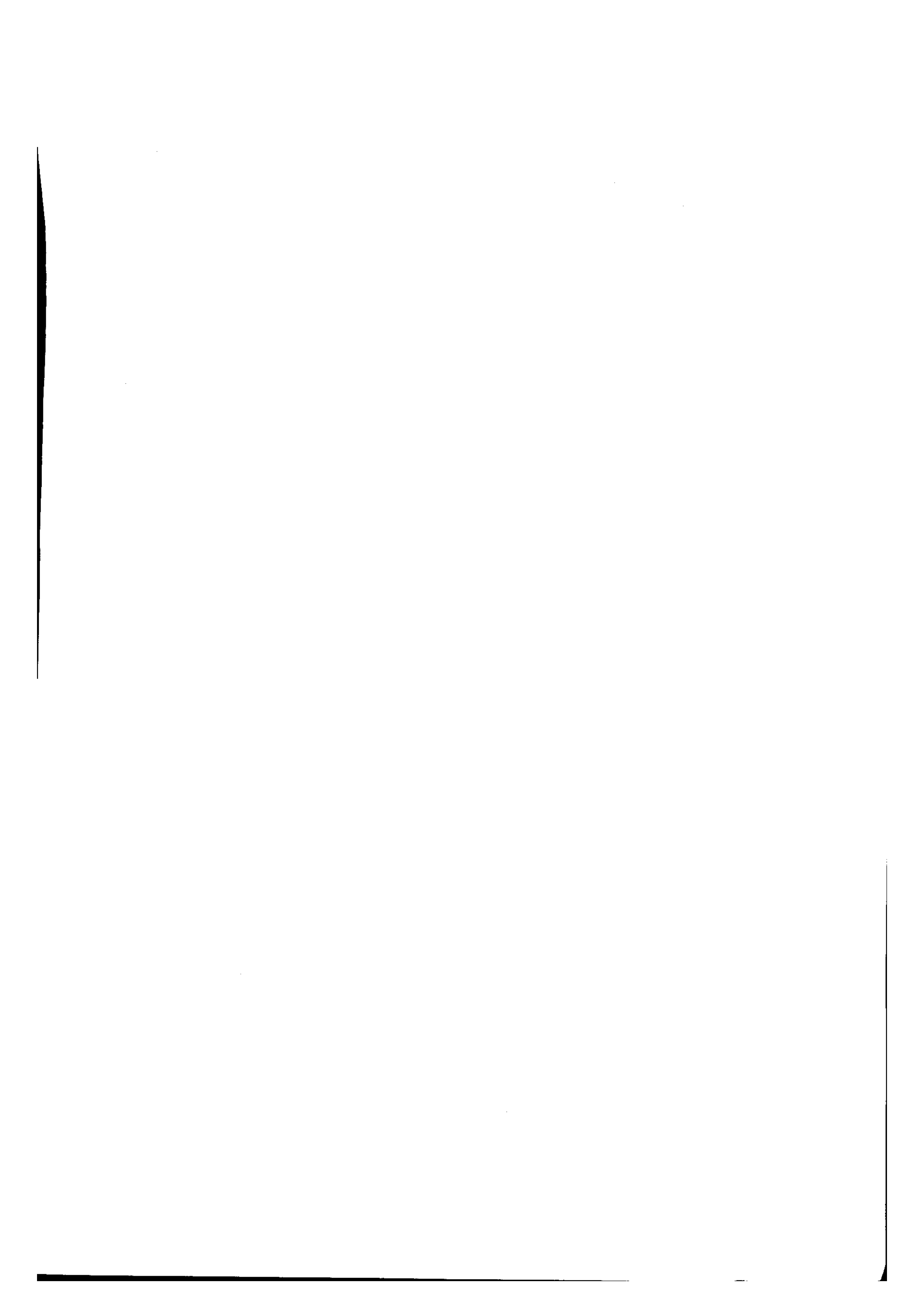
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾

صدق الله العظيم

(٣٢ / البقرة)

المحتويات



تقديـــم

انطلاقًا من شعور رابطة الشباب المسلم العربي بوجود مشكلة متميزة تواجه قطاعًا هامًا من شباب الرابطة الذين يدرسون العلوم الاجتماعية في الجامعات الغربيّة ، رأت اللجنة الثقافية بالرابطة (١٤٠٧ - ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) أن تدخل ضمن إطار برنامجها الثقافي دورات خاصة تتناول العلوم الاجتماعية من المنظور الإسلامي.. وذلك لأن هذه العلوم تدرَّس في الجامعات الغربيّة بمنهج تكوَّن من طبيعة الثقافة الغربيَّة ومعطياتها ، وهو يعبِّر عن المنطلقات الفكريّة والفلسفيّة التي قامت عليها الحضارة الغربيّة ، مما يجعل الطالب المسلم الدارس لهذه العلوم في مراحلها كافة في حيرة بين ما للإسلام من معرفة متميزة تقوم على مصدرين للمعرفة لا ثالث لهما هما: الوحي والوجود ، وتتوسل إلى ذلك بوسائل في مقدمتها العقل والحس ، وبين هذه العلوم ومناهجها المعرفيّة الغربيّة التي تهمل الوحي ولا تعتد به مصدرًا للمعرفة ، والذي انعكس في إخضاع الدراسات الاجتماعية لذات المناهج التي تستخدم في العلوم الطبيعية ، مما جعل هذه العلوم الاجتماعية والدراسات الإنسانية قاصرة في تصوراتها عن الإنسان فردًا وأسرة ومجتمعًا وعلاقات إنسانية.

وقد شاب الأطروحات الغربية في هذه المجالات كثير من عوامل النقص والتناقض ، وقد أحدث نقل هذه العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى العالم الإسلامي من الاضطراب والقلق وضباب الرؤية الذي أحدثه في الغرب وزيادة . وإذا كان تقدم الغرب قد يؤدي إلى تغطية بعض عيوب وقصور هذه العلوم في المجال الاجتماعي والإنساني عنده ، فإن تخلّف العالم الإسلامي

جعل عيوب هذه العلوم وقصورها في تكوين العقلية الإنسانية أكثر وضوحًا، وأشد خطرًا وتهديدًا.

ومن هذا المنطلق اقترحت اللجنة الثقافية للرابطة على المعهد العالمي للفكر الإسلامي تنظيم حلْقة دراسية بعنوان (نحو نظرة إسلامية للعلوم الاجتماعية) وذلك لقناعة الرابطة بالدور الريادي الذي يقوم به المعهد في جعله هذه القضية إحدى محاوره الأساسية التي يعمل على إصلاحها ضمن برنامجه القائم على معالجة الأزمة الفكرية والثقافية والحضارية للأمة وذلك بالعمل على إصلاح مناهج الفكر الإسلامي وإسلامية المعرفة ، وقد نوَّه الأستاذ حسين قزاز المسؤول الثقافي للرابطة آنذاك لدى افتتاح الحلقة ، بالجهد الذي قام به المعهد في تعاونه مع الرابطة في عقد هذه الحلْقة الدراسية واستضافتها.

وقد حاضر في هذه الحلْقة التي انعقدت في الفترة من (٣ــ٥ ذي القعدة ١٤٠٨هـ الموافق ١٧ــ١٩ يونيه ١٩٨٨م) بمقر المعهد كل من الأساتذة:

الدكتور عبد الحميد أحمد أبو سليمان رئيس مجلس أمناء المعهد.

الدكتور طه جابر العلواني رئيس المعهد.

الدكتور محمود عايد الرشدان مدير دائرة التربية والتعليم بالمعهد.

الدكتور أحمد زكي حماد رئيس الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية.

وقد تناول المتحدثون في محاضراتهم العديد من القضايا الفكرية المرتبطة بموضوع الحلْقة ، وقد أعقب المحاضرات حوارات أثرت القضية وبيَّنت أهمية مثل هذه الحَلَقات والندوات والدورات.

وكان من بين إسهامات **الدكتور طه جابر العلواني** تقديمه لمحاضرة عنوانها «**الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات علاج**»، وقد طلب الأخوة المشاركون في الحلْقة نشرها ، كما أبدوا رغبتهم في نشر المحاضرات

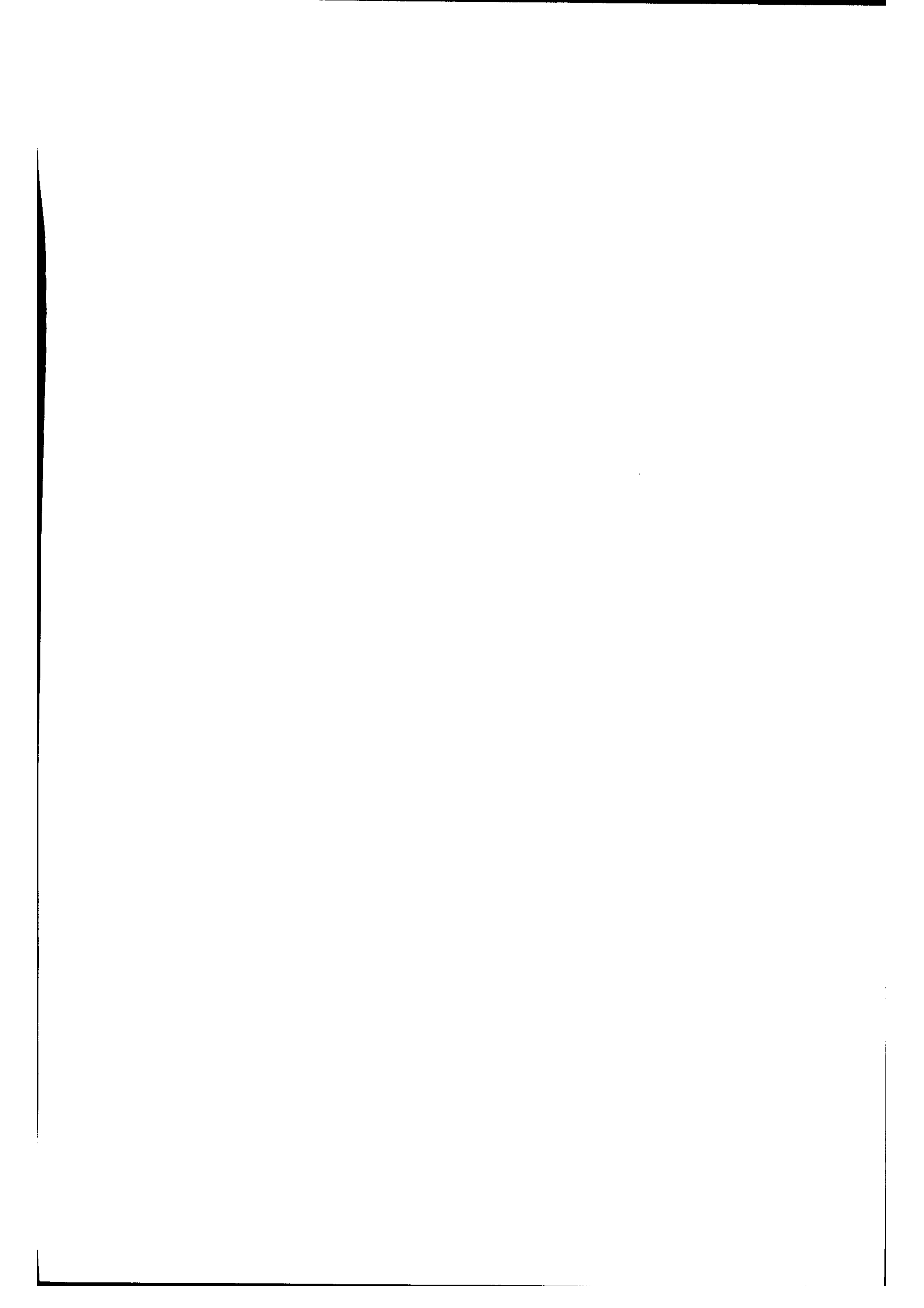
التي أُلقيت بالحلْقة مع الحوار والنقاش الذي دار بها.. ولعل الله يوفق للقيام بذلك في المستقبل القريب إن شاء الله.

والمعهد إذ يقدم هذه المحاضرة للقرّاء لتكون باكورة إصداراته في سلسلته الجديدة التي سيقدم فيها أهم المحاضرات التي ينظمها المعهد أو تنظمها فروعه تيسيرًا لانتشار هذه المشاركات الفكرية وتوزيعها على أوسع نطاق ممكن، ليرجو أن تكون هذه المحاضرات وما يعقبها من نقاش جهودًا تساعد على تركيز الاهتمام بقضايا الأمة الفكرية والثقافية والحضارية، وتقديم التصورات الإسلامية للخروج من هذه الأزمة، والعودة بالأمة المسلمة إلى القيام بدورها المطلوب في الشهود الحضاري المميز لها.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

هيرندن ــ فرجينيا

رمضان ١٤٠٩هـ إبريل ١٩٨٩م



تمهيد

منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي، والعالم الإسلامي كله مقتلع النوافذ والأبواب في وجه الفكر الغربي ، والمنهج الغربي ، والثقافة الغربية، والعلم الغربي ، والحضارة الغربية ، والفنون والآداب والأذواق والتقاليد الغربية بدرجات متفاوتة . فمنذ أن بدأ الغربيون ينشئون كنائسهم التنصيرية وبجوارها أو بداخلها مدارسهم التعليمية في بيروت والقاهرة وبغداد والموصل والاسكندرية واسطنبول وغيرها من حواضر المسلمين ، والحصون الفكرية والثقافية الإسلامية التي كانت متبقية لدى هذه الأمة كانت تتهاوى واحدًا بعد الآخر ، والأجيال المسلمة تتعرض لعملية استلاب فكري وثقافي هائل، انتهت بأن أصبحت جميع معارفنا النظرية غربية مائة بالمائة ، أو موضوعة في قالب وإطار غربيين ، شمل ذلك الفكر والمنهج والمصدر والفلسفة المعرفية وموضوعاتها وأهدافها وغاياتها وكل ماله علاقة بها من قريب أو بعيد. وحتى تلك العلوم التي نسميها بالشرعية أو الأصلية أو التقليدية أو أية تسمية أخرى لم تسلم من عملية الإستلاب والتغيير هذه، فأخضعت جوانب كثيرة منها للتطور الغربي وللوسائل الغربية والطرائق الغربية في توصيل المعرفة وتقديمها وبناء فلسفتها ومعالجة قضاياها وموضوعاتها.

وبذلك امحت الشخصية الإسلامية بانهيار مقوماتها الأساسية العقلية والنفسية. فالمقومات العقلية مبنية عند الإنسان المسلم ـــ إضافة إلى الموهبة والاستعداد والوراثة والقدرة والملكات الثقافية والمعرفة والتصورات والفكر والتأملات والخبرات والتجارب والدراسات والتحليلات والملاحظة ـــ على

منهج ومعرفة ، فإذا وجد المنهج والمعرفة ، وجدت العقلية وصيغت وتم بناؤها.

والمقومات النفسية متمثلة ــ إضافة إلى الاستعداد والقدرة ــ في الفنون والآداب وما يتصل بها ، فالفنون والآداب هي التي تسهم عادة بتكوين ذلك الذوق الذي نطلق عليه النفسية وما يتعلق بها .

ومن هنا فإن الفلاسفة لم يبعدوا كثيراً حين صنفوا القيم إلى أنواع ثلاث: قيم الحق وقيم الخير وقيم الجمال . فإذا كانوا قد أبعدوا في شيء فإنما أبعدوا في ربط هذه القيم بمصادرها ووسائل الوصول إليها ، فزعمهم بأن قيم الحق وقيم الخير تنبثق عن العقل وحده هو ذلك الزعم الخاطىء الذي نرفضه ولا نرضاه . وقيم الجمال كذلك لا نرضى أن يكون مصدرها العقل وحده أو الذوق والرغبة والهوى ، وإنما مصدر سائر القيم عندنا نحن المسلمين أمران مترابطان ،يسيران جنباً إلى جنب دون أي فاصل بينهما ، هما: الوحي والوجود، الوحي بكل ما أفاده من كتاب وسنة وما اعتد به من قبلهما من مصادر أخرى، وكذلك الوجود ، فهذان المصدران منهما ومن خلالهما نتعرف على مراتب القيم ، ونصنفها إلى ضروريات وحاجيات وتحسينيات كما صنفها علماؤنا وكما هي تعبيراتهم ، وهما المصدران المتلازمان اللذان لا يفترقان ، ويوم يفارق أي منهما الآخر فإن ذلك يعني الخراب في هذه القيم أو في مراتبها كلها .

قضيتان أساسيتان

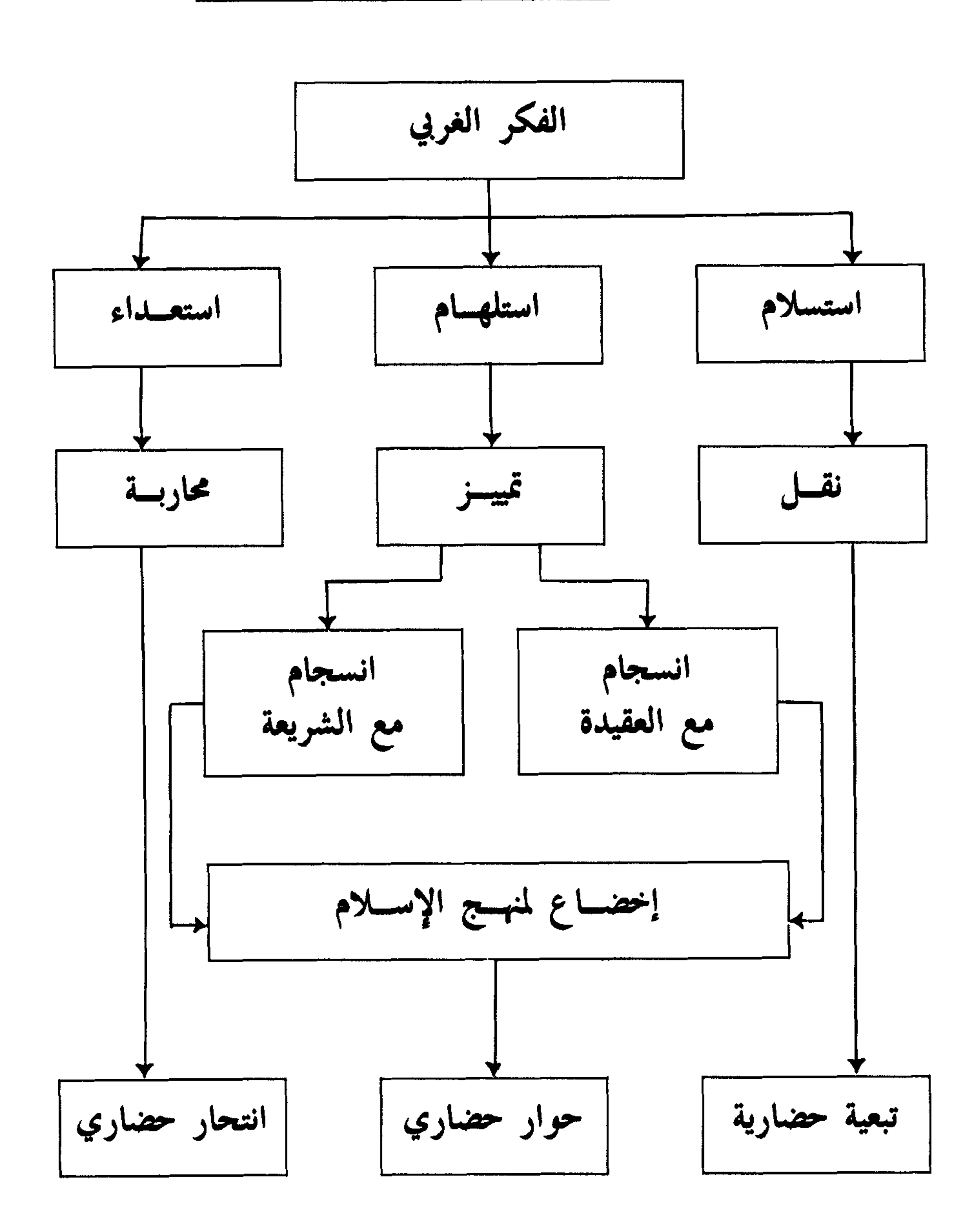
وقبل أن ندخل في صميم موضوعنا ، أود أن أوضح قضيتين أساسيتين سأبني على كل منهما الكثير مما سأتعرض إليه وسأشرحه.

القضية الأولى

قضية الغزو الفكري :

قضية الغزو الفكري وهم أم حقيقة ؟ لقد انقسم المثقفون من أبناء أمتنا في الإجابة عن هذا السؤال إلى قسمين متناقضين وفريقين متضادين ، فريق ينكر وقوع هذا الغزو ، ويرفض الاعتراف به ، ويرى مجرد الحديث عنه بهذا التصور حديث أولئك المتطرفين ، الذين يريدون رفض حضارة العصر، وتجاهل آثار ثورة الاتصال والمواصلات العصرية ، التي جعلت من المتعذر على الحواجز الجغرافية والحدود السياسية والقومية الوقوف في وجه تأثيرات الحضارة العالمية بكل أنواعها الفكرية والثقافية والفنية ، وبالتالي فليس عند هؤلاء أي غزو أو غزاة ، بل هناك فكر وثقافة وفنون ، تنتقل كما ينتقل الهواء بموجاته الساخنة والباردة دون أن نتمكن من مقاومته ، وأن الأفكار والثقافات قد أصبحت عند هؤلاء تتداخل كما تتداخل المياه ، دون اعتبار لحدود مياه دولية أو إقليمية متصورة أو مصطنعة . وهذا الموقف هو موقف أصحاب هذه الحضارة وتلامذتهم والمتطبعين بفكرهم وثقافتهم ، وهذا الموقف يجعل من الصعب على أية أمة من الأمم أن تتخذ من هذه الحضارة موقفًا غير موقف المستسلم المتلقي ، الذي يتقبلها بكل ما فيها ، ويعتبرها قدرًا حتميًا لا يمكن مقاومته ولا الوقوف في وجهه .

شكل رقم ١


قضية الغزو الفكري
الفكر الغربي
استسلام
استلهـام
استعـداء
نقـل
تمييـز
محاربـة
انسجام
مع العقيدة
انسجام
مع الشريعة
إخضـاع لمنهـج الإسـلام
تبعية حضارية
حوار حضاري
انتحار حضاري

أما الفريق الثاني فهو فريق يعتبر هذا الغزو حقيقة مجسدة ، ومعركة دائمة الاشتعال مستمرة القتال ، لها جيوشها وأسلحتها وضحاياها وصفحات معاركها وأبطالها وجبناؤها ، ويؤكد هذا الفريق على تمايز الأفكار والثقافات والحضارات وإمكان حيازتها وحصرها في المكان وفي الزمان ، وأن الأفكار والثقافات كالجيوش يمكن حصرها في حدودها الإقليمية وحدودها الدولية ومنعها من أن تتعدى حدودها ، فإذا حصل وتجاوزت تلك الحدود كانت عدوانا وكانت غزوًا سافرًا ، تجب مقاومته وصده والوقوف في وجهه .

أما موقفنا نحن الذي اخترناه ، ونستطيع الاستدلال عليه والبرهنة على صحته، فهو الموقف الوسط الذي علمنا الإسلام إياه . فنحن ننكر تصور العالم وطنًا حضاريًا واحدًا بحضارة واحدة . هذا التصور هو تصور ذلك الفريق الذي ينكر الغزو الفكري كما ذكرنا ، ويراه مجرد وهم من الأوهام ، وليس حقيقة من الحقائق ، ونرى أن هذا الموقف — حتى مع افتراض حسن النية عند أصحابه — مكرس وموظف لخدمة الانتصار التام الساحق للحضارة الغربية المتغلبة في عالمنا المعاصر ، انتصارها بالمسخ أو التشويه لفكر وحضارات وثقافات الأمم الأخرى المختلفة التي ابتليت هي وشعوبها وأممها بغزو الاستعمار الغربي في عصرنا الحديث، ونعتبر أن هذا إنما هو طريق للتبعية الحضارية ، التي لابد أن تسبقها تبعية فكرية وثقافية ، وأن هذا الموقف لو اتخذناه أو أصبح موقف الأمة كما كان في أوائل هذا القرن سوف يحولها إلى تابع ذليل لحضارة الغرب وفكره ، فنفقد أو نستمر بالأحرى في فقدان شخصيتنا الثقافية والحضارية ، ونفقد مكانتنا لندخل في النهاية في المأزق الحضاري الغربي ، الذي يجاهد الغرب ذاته اليوم للخروج منه وللوصول إلى سبيل للفكاك والخلاص من أسره . كما لا نقبل أيضًا رأي الفريق الذي يتصور العالم حضارات منعزلة وجزرًا منفردة تمامًا مكتفية بذاتها

كلية ، لأن هذا التصور فضلاً عن تجاهله لواقع القضايا المشتركة بين بني البشر ، التي أكد الإسلام وجودها وجاءت مصادره لتنبه إليها ، يصيب الأمة التي تفرض على نفسها مثل هذا الموقف بعزلة حضارية هي أقرب ما تكون إلى عملية انتحار حضاري وثقافي وفكري .

هذا التصور ـــ لو فرضنا إمكان وقوعه وإمكان الأخذ به ـــ يتجاهل ثورة الاتصال والمواصلات التي لم يعد في إمكان قطر من الأقطار أن يحول بينها وبين الدخول إليه ، فإنه إن وقف أو أغلق في وجهها الباب دخلت من النافذة ، وإن أغلق النافذة دخلت مع الهواء ، أو دخلت مع الأثير ، أو دخلت مع أي شيء من الأشياء . نحن نختار لأنفسنا بين هذين الموقفين موقفاً وسطاً عدلاً نبصر فيه ماهو عام ومشترك في الفكر الإنساني مما ينسجم مع العقيدة والشريعة ، فندعو أمتنا إلى طلبه وتحصيله واستلهامه وتمثله ؛ لتقوي به ذاتيتها ، وتزدهر به شخصيتها ، ويشتد به عودها ، مع إدراك سمات حضارتنا ومميزاتها ، ومصادر فكرنا وثقافتنا وفنوننا وآدابنا ونجتهد في وضع الوسائل والمناهج التي تجعلنا نتمثل هذه الأمور وفقًا لمنهجنا لا لمنهجها أو منهج أصحابها وما وضعوه .

القضية الثانية

وهي القضية التي تحدد الأدوار التي مر بها تعاملنا مع الفكر والثقافة والمعرفة الغربية منذ بدأ احتكاكنا بها ، وهو أمر يتعلق بالقضية الأولى ويعطيها مزيدًا من التوضيح ، وبها يمكن أن نقرر أن موقفنا من الفكر والثقافة والمعرفة الغربية منذ أن بدأ اتصالنا بها ـــ ربما في عهد سليم الثاني أو بعده بقليل ـــ قد مرّ بمراحل ثلاث هي :

● **المرحلة الأولى:**

ويمكن أن نسميها بمرحلة الصدمة الأولى والانبهار المباشر ، وهي المرحلة التي زُلزل فيها المسلمون زلزالاً شديداً عن مواقعهم الفكرية والثقافية ، وفقدوا ثقتهم بفكرهم الإسلامي وثقافتهم الموروثة ، وخيل لهم أن الفكر والثقافة الإسلامية لا يمكن أن يبنيا حضارة أو يحققا تقدمًا أو إنماء ، ووُضع الإسلام كله في قفص الاتهام ، وأصبح الإنسان المسلم منهزمًا من الداخل نفسيًا ، مهيئًا تمامًا لاستقبال البديل الغربي في الفكر والثقافة والعلم والمعرفة والفنون والآداب دون أي تحفظ . وفي هذا الدور بدأت البعثات من أبناء المسلمين تجوب الجامعات والمعاهد الغربية بحثًا عن المعرفة والفكر والثقافة دون تمييز أو انتقاء أو احتياط أو تحفظ . وبدأت المؤسسات العلمية في بلداننا تؤسس وتُبنى وتُنشأ على النمط الغربي في الفلسفة والفكر والثقافة والمكان والمناهج والبرامج والوسائل وسائر ما يتعلق بها . وكانت جرأة بالغة في تلك الفترة أن يقول المسلم الملتزم إن الإسلام لا ينافي العلم ولا يناقض الحضارة . ومن هنا فإن كثيرًا من المعاصرين ينظرون بعين النقد وأحيانًا بعين الرفض إلى أمثال الشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغاني ، ولكن الناظر إلى موقف هذين الرجلين بعين الحقيقة المقدِّرة لتلك الفترة يستطيع أن يدرك أن ما قام به الرجلان في تلك الفترة كان هو

الممكن وهو المستطاع بالنسبة لظروف تلك المرحلة . كان قصارى جهد المسلمين الملتزمين وجهاد علمائهم في تلك الفترة أن يؤكدوا بشتى المؤكدات الخطابية ، مستنصرين ببقايا الإيمان الكامن في القلوب ، وفضلة الثقة العالية في النفوس ، على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، ويصرون على تأكيد هذه العمومية من أجل أن يدفعوا المسلمين إلى شيء من التوازن أو الوقوف على الأقدام في وجه ذلك الغزو الساحق الماحق .

● **المرحلة الثانية :**

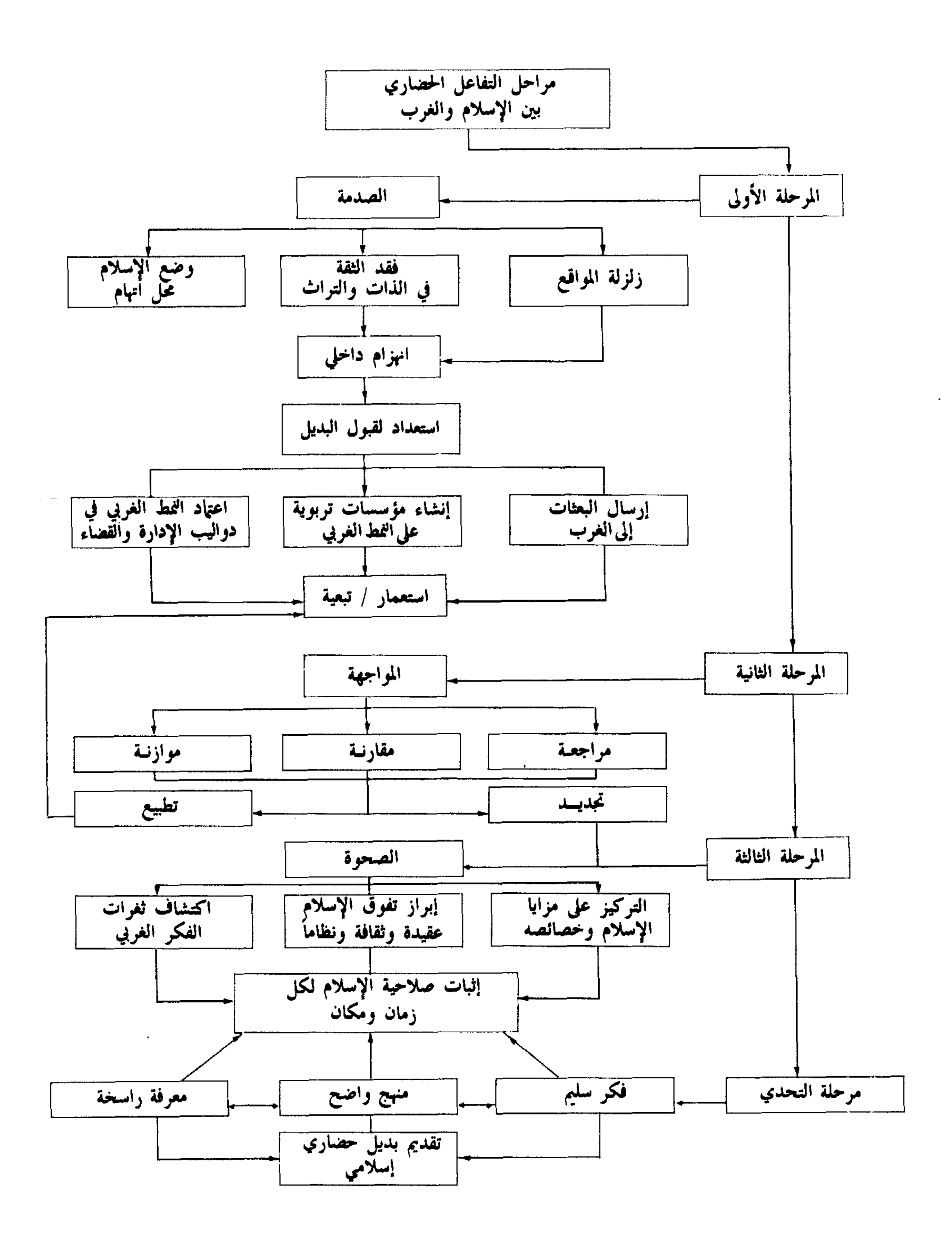
وهي المرحلة التي بدأت فيها النفوس تستقر إلى حد ما وتجتاز فترة الانبهار ، وفيها بدأ المسلمون يلتقطون أنفاسهم ويراجعون مواقفهم ، ويتعاملون مع المقولات الغربية المختلفة ، ويراجعون النظريات والمدارس والمقولات مراجعة الدارس المستفيد ، فشاعت أفكار الموازنة والمقارنة والبحث عن وجوه الالتقاء بين الإسلام والثقافة الغربية ، بدوافع مختلفة ، بعضها لتحقيق أهداف غربية فيما يمكن أن نسميه بتطبيع العلاقات بين المسلم والفكر والثقافة الغربيين ، والقضاء على سائر جيوب المقاومة في العقول والقلوب المسلمة ، وبعضها لدوافع إسلامية ذاتية مخلصة ، كانت تستهدف فتح النوافذ ، أو إيجاد ثغرات في الجدار الفكري والثقافي الغربي الذي أحاط بالمسلمين ؛ لكي ينفذ الإسلام من تلك الثغرات اليسيرة الضيقة من جديد إلى العقول والقلوب المسلمة ، فبدأنا نقرأ في تلك الفترة عن ديمقراطية الإسلام ، واشتراكية الإسلام ، والعدل الاجتماعي في الإسلام ، والسلام في الإسلام ، وحقوق العمال في الإسلام ، وحقوق المرأة في الإسلام ، وحقوق الإنسان في الإسلام ، إلى غير ذلك من أمور تدل على أننا اجتزنا مرحلة الانبهار ودخلنا مرحلة المواجهة ، وكانت غاية تلك المرحلة أن نقرر

أن لدينا مثل ما لدى الغرب ، فقد يمتاز عنا الغرب بشيء ولكن لدينا مثله بشكل من الأشكال .

● **المرحلة الثالثة :**

وهي المرحلة التي نعيشها أو نعيش جزءاً منها ، مرحلة سميت بمرحلة الصحوة الإسلامية ، ونسميها مرحلة الوعي بالذات أو اكتشاف الذات . هذه المرحلة هي المرحلة التي بدأنا فيها نؤكد على مزايا الإسلام وخصائصه وتفوقه فكرًا وثقافة وعقيدة ونظامًا ومنهاج حياة وأخلاقًا وقيمًا ومعايير، بل بدأنا نكتشف في هذه المرحلة بعض الثغرات الكبرى في ثقافة الغرب نفسه وفي فكره ، اكتشفنا فيها أننا كنا مخدوعين ، نعيش حالة غزو وحالة استلاب ثقافي وفكري وفقدان توازن ، إضافة إلى الاستلاب السياسي والاقتصادي ، وبدأ الكثيرون منا يدركون أن الأطر الفكرية الغربية والنظريات الغربية والمناهج والثقافة الغربية بكل مدارسها لم تعد صالحة لبناء نهضتنا وحضارتنا وإقامة الكيان العمراني المشترك لأمتنا ، وبدأ في هذه المرحلة يشيع مصطلح الصحوة الإسلامية ، وطُرحت كثير من القضايا المعقدة ، ووُضع المفكرون المسلمون أمام الاختبار العسير والتحدي الخطير ، فإما أن يثبتوا صحة وسلامة شعاراتهم ونداءاتهم بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وأن الإسلام قادر على استئناف حياة إسلامية وبناء حضارة وإقامة تقدم وإيجاد دولة وتقديم بدائل ، وإما أن ينسحبوا من الميدان ويتركوه لغيرهم مرة أخرى ؛ لتبدأ الأمة مرحلة من التيه جديدة . ويمكن بيان هذه المراحل الثلاث في التعامل مع الفكر والحضارة الغربية في الشكل التالي.

شكل ٢



مراحل التفاعل الحضاري
بين الإسلام والغرب
المرحلة الأولى
الصدمة
زلزلة المواقع
فقد الثقة
في الذات والتراث
وضع الإسلام
محل اتهام
انهزام داخلي
استعداد لقبول البديل
إرسال البعثات
إلى الغرب
إنشاء مؤسسات تربوية
على النمط الغربي
اعتماد النمط الغربي في
دواليب الإدارة والقضاء
استعمار / تبعية
المرحلة الثانية
المواجهة
مراجعة
مقارنـة
موازنـة
تجديـد
تطبيع
المرحلة الثالثة
الصحوة
التركيز على مزايا
الإسلام وخصائصه
إبراز تفوق الإسلام
عقيدة وثقافة ونظاماً
اكتشاف ثغرات
الفكر الغربي
إثبات صلاحية الإسلام لكل
زمان ومكان
مرحلة التحدي
فكر سليم
منهج واضح
معرفة راسخة
تقديم بديل حضاري
إسلامي

حاجتنا إلى الفكر

من المهم جداً ملاحظة هذه المراحل لكي لا نخلط بين الأولويات . لم نعد نحن الآن في مرحلة المناداة بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، فإن تلك المرحلة قد انتهت وينبغي تجاوزها بكل شعاراتها . لم نعد كذلك في حاجة إلى إيجاد موازنات بين الإسلام وغيره ، لأن هذه المرحلة أيضًا قد انتهت وتجاوزناها . نحن الآن في مرحلة أخرى ، هذه المرحلة هي كما قلنا مرحلة تحد كامل ، إما أن نكون قادرين على إقناع الأمة بأننا البديل الحضاري المناسب ، وأننا الأقدر على تقديم الفكر السليم والثقافة الصحيحة والحضارة القويمة والعمران الأكيد ، وأننا نحن المؤهلون لأن نجتاز بالأمة حاجز التخلف ، ونحقق لها أهدافها في الإنماء والبناء وفي العمران وفي احتلال موقعها تحت الشمس ، وإما أن يثبت عجزنا ، لأن العالم قد اجتاز المرحلتين السابقتين تمامًا ، ويجب أن ندرك نحن أننا قد اجتزناهما .

الوسيلة الوحيدة لإثبات صحة ما ندعو إليه هي في تقديم البديل الإسلامي لكل ما قدمه الغرب وتجربة هذا البديل ونجاحه ، فهناك فكر سياسي غربي وفكر اقتصادي وفكر اجتماعي وفكر تشريعي وفكر تربوي وإنساني ، وفكر فلسفي ومنهجي وثقافي ، وعلى أساس من ذلك الفكر كله قامت هذه الحضارة الغربية المعاصرة في سائر جوانبها ، فنجحت في بعض هذه الجوانب نجاحًا بالغًا ، وتراجعت وفشلت في جوانب أخرى فشلاً ذريعًا . والتحدي الإسلامي لايتم إلا بتقديم البدائل الناجحة أو المتفوقة في كل جانب : الفكر والثقافة والمعرفة والحضارة ، وإثبات ذلك النجاح والتفوق في الحضارة التي تقوم عليه وتنبثق عنه ، من خلال مؤسسات

ونظم ووسائل تجسد ذلك الفكر ، وتقوم تلك الحضارة . وآنذاك فقط يمكن أن نقول بملء الفم ، ها نحن قد عدنا من جديد ، وأن صحوتنا إنما هي صحوة حقيقية لا تعقبها كبوة .

من الممكن أن يوجد في أي بلد من البلدان قانون للأحوال الشخصية مستمد من الفقه الإسلامي ، ويمكن أن يضاف إليه قانون للعقوبات يطبق الحدود وفقًا للفقه الإسلامي . ليست المشكلة في هذا الأمر ، كما يمكن أن تكون هناك قوانين أخرى تجارية أو مدنية، أيضًا ليست هذه مشكلة، فالدولة العثمانية حينما انهارت وسقطت الخلافة في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ / ٢ مارس سنة ١٩٢٤ كانت كل هذه القوانين موجودة في الدولة ، ولكن لم تكن تحقق لها الحماية . ولا تزال هذه القوانين تطبق في بعض الأماكن أو في بعض البلدان الإسلامية ، ولكنها لم تحقق نصرًا ولم تقم حضارة . القانون يمكن أن ينظم واقعًا ، ولكن أن يوجد أو ينشيء حضارة فهذا أمر آخر . كذلك من الممكن أن يوجد موظفون مدنيون من منصب رئيس دولة إلى منصب شرطي أو فراش بسيط . يمكن أن نجد رئيس دولة متدينًا ، ويمكن أن نجد مديرًا عامًا ووكيلاً وكذا .. كل هذا يمكن وجوده ولكن لا يعني أن الحياة الإسلامية قد استأنفت ، وأن الحضارة الإسلامية قد بدأت تنشأ أو تنهض . كل ذلك لا يمكن أن يعتبر استئنافًا لحياة إسلامية ما لم تكن السيادة في العقول للفكر الإسلامي . وما لم تستعد الأمة شخصيتها الثقافية المميزة وعقليتها الإسلامية ونفسيتها الإسلامية المطمئنة ، فلا أمل في نهضة حقيقية أو بناء حضاري .

إن عالمنا الإسلامي اليوم تتقاسم عقول أبنائه المذاهب الفكرية الغربية كالعقلانية والوضعية والطبيعية والمادية والمادية الجدلية والمادية المطلقة ونحوها . كما تتوزع نظم دياره المذاهب والنظم السياسية القومية والاشتراكية والديموقراطية . وتشترك في الهيمنة على ثقافة بنيه ومناهجهم

الثقافة الغربية بمدارسها المختلفة وجوانبها المتنوعة . وحالة التمزق والصراع الدائم والتفكك الاجتماعي ـــ التي تعيشها معظم ديار الإسلام ـــ حالة لا يمكن أن تتوقف أو تنتهي ، إلا بعد أن يتم تقديم البديل الفكري والثقافي الإسلامي ، وتبدأ الأجيال المسلمة تتربى على هذا الفكر ، وتصاغ عقليتها وفقاً لهذه الثقافة ومناهجها وفنونها . ومن هنا جعلنا قضيتنا الأساسية المحورية في هذه الدراسة قضايا الفكر ، وقضايا المنهج ، وقضايا المعرفة والثقافة، وقضايا البديل الحضاري . نحن نعلم أن للأمة قضايا أخرى وهمومًا إضافية ومشكلات عاجلة يومية لها خطورتها وأهميتها ، ولكننا نزعم أن نقطة البداية وحجر الزاوية في طريق الإصلاح ينبغي أن تكون مما ذكرنا ، وبمعالجة المحاور التي ذكرناها . فما هي قضية الفكر ؟ أو ماهو الفكر ؟ وماهي أهم قضاياه ؟ وما الذي اعتراه حتى أصبح في حاجة إلى إصلاح في مناهجه ؟ وكيف يمكن أن يتم هذا الإصلاح ؟

مفهــوم الفكـــر

● معنى الفكر وحقيقته:

هنا سأنحو منحى (أكاديمياً) إلى حد ما ، فالأمر لم يعد أمر خطابة وإثارة مشاعر ، وإنما لابد أن يقوم على دراسة وتحقيق وعمل متقن دقيق عن كل ما ذكرناه . لا أوضاع أمتنا تحتمل عمليات إذكاء المشاعر ومخاطبة العواطف ، ولا أوضاعنا نحن ، ولا أوضاع شبابنا المثقف طليعة أبناء هذه الأمة . نحن قد تعلمنا في دراستنا الشرعية أن أي شيء يثار لابد من تعريفه لغةً ، ثم تعريفه اصطلاحًا ، لكي يتصوره الإنسان . كلمة الفكر يطلقها اليوم كثيرون ولكنها تحتاج إلى تحديد مفهومها وبيان حقيقتها ليمكن تصورها بشكل سليم .

المعنى اللغوي : اللغويون يقولون فكّر يفكِّر تفكيرًا بالتشديد ، ويقولون

إنه يمكن أن نأتي من باب «ضرب» «فَكَرَ ـــ يَفْكُر ـــ فِكرًا أو فَكْرًا على وزن ضرب ـــ يضرب ـــ ضربًا» ويقولون يجوز أن يقال «أفكرته» أي «جعلته يفكِّر» أيْ «يتذكر» مثل «ذكَّرته» ، ويقول بعضهم «الفكر» مقلوب عن «الفَرْك» ، لكن الفرك هو للأمور الحسية كما تفرك القمح أو الذرة ونحوها ، و الفكر هو للأمور المعنوية ، ولهم كلام طويل عريض في قضية تحليل الجذر وبيان الجمع والتثنية ومتى يلحقه التعريف ومتى لا يلحقه لا نطيل فيه ، لكننا فقط نريد أن نبين أن هذه الكلمة هي جزء من البناء اللغوي ، والنسيج اللغوي للغتنا له جذره وله معناه .

ونلجأ مباشرة بعد اللغة إلى مصدرنا الأساسي الذي لا ينبغي أن نزيغ عنه وهو كتاب الله . في كتاب الله لم ترد مادة فكر (ف ك ر) بصيغة الإسم ، أي لا نجد مثلاً في القرآن الكريم فكر كإسم أو مصدر ، ولا نجدها معرفة بلام ولا منكرة ، فقد وردت في القرآن الكريم في عشرين موضعًا بصيغة الماضي ـــ فعل ماضٍ ـــ وبصيغة المضارع . «إنه فكَّر وقدر» «لعلهم يتفكَّرون» ، «أفلا تتفكّرون» في صيغة المخاطب وفي صيغة الغائب . والفعل في لغتنا العربية تعريفه بأنه ما دلّ على حدث وذات ، يعني حينما نقول «ضرب» فضرب تدل على الحدث نفسه وهو الضرب ، وتدل على أن هناك إنسانًا ضاربًا . فحينما نقول فكَّر أو يفكِّر أو تفكَّر فهي كلمة تدل على حدث هو الفكر ، وتدل على الذات الفاعلة لهذه الحدث التي نسميها بالمفكر . فحينما تستخدم في القرآن الكريم بهذه الطريقة فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن هذا العمل الذهني الذي يسمى بالفكر إنما هو عمل مرتبط بذات ، فلا يمكن أن يتجرد الفكر عن المفكر . فكلما وجد فكر وجد مفكر ، وأن الفكر لا ينبغي أن يكون شيئًا فيما لا طائل تحته وفيما لا عمل أو حركة في هذا الكون تبنى عليه .

نتجاوز هذا لنعود إليه بعد قليل لنقرر أن هذا الذي نسميه بالفكر هو

خاصة من خواص الإنسان ، لا يشترك معه فيه أي مخلوق آخر ، ولا يطلق الفكر إلا على العمليات الذهنية التي يقوم بها الإنسان ، أما الحيوانات فحتى المظاهر التي تشبه عملية الفكر لدى الإنسان لا تسمى بفكر ، وإنما تسمى بالتوجيه الغريزي . حتى المناطقة الأقدمون يـفسرون الإنسان فيعرفونه بأنه حيوان ناطق ، أي مفكر . أما بقية الحيوانات فلها التوجيه الغريزي ونحوه ، وهو الذي يقابل الفكر والذهن والقوى العاقلة عندها .

وقد اهتم علماؤنا بتفسير الفكر وتعريفه وبيان حقيقته ومعناه ، وإن أهمله المعاصرون إلى حد كبير . للكلام عن حقيقة الفكر وبيان مايدخل تحته وجدت أن كثيرًا من علمائنا الأقدمين من القرن الثالث الهجري الذي بدأت علومنا تتبلور فيه ، والقرن الرابع الذي ازدهر فيه تدوين هذه العلوم ، وجدت كثيرين منهم قد تكلموا في هذا الأمر ، وتناولوه بالشرح والبيان ، وعرفوا هذا الاصطلاح وكتبوا فيه كثيرًا . فبعض المراجع وجدت فيها ما يقرب من مائة صفحة تتحدث عن الفكر ومواصفاته وشروطه . وبعض المصادر وجدت فيها أكثر من هذا، ولكن بطبيعة الحال طبيعة مصادرنا مختلفة ، وكتبنا الدراسية لها وضعها وطريقتها في التناول ، فتجد بيان وتعريف هذا المصطلح أحيانًا في كتب التصوف ، وتجده في كتب اللغة ، وتجده في كتب الفلسفة ، وفي كتب علم الكلام ، وفي كتب الأصوليين . فعند كل هؤلاء وفي موسوعات هذه العلوم نجد كلامًا كثيرًا عن الفكر ومرادفاته وشروطه وتنوعه ، لا أريد أن أطيل فيها ، ولا أريد أن أدخل في تفاصيلها ، ولكني أستطيع أن أقول إنني خرجت من خلال دراستي لما ورد في هذه المصادر **بأن الفكر اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان ، سواء أكان قلبًا أو روحًا أو ذهنًا بالنظر والتدبر ، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة ، أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء** . ويزيد في إيضاح هذا المعنى ما أورده الإمام أبو

حامد الغزالي حيث قال : **اعلم أن الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستخرج منهما معرفة ثالثة** ، كأنه يريد أن يقول إنه تهيئة مقدمتين ليصل من المقدمتين إلى النتيجة ، كأن أقول «وأقيموا الصلاة» ، إذا أردت أن أحولها إلى قضية فكرية أقول أقيموا الصلاة أمر وهذه مقدمة ، فعل «أقيموا» في اللغة فعل أمر ، وكل أمر من الخالق سبحانه وتعالى لعباده فهو واجب ؛ المقدمة الأولى دليلها لغوي وهو فعل الأمر ، المقدمة الثانية دليلها أصولي والأمر واجب التنفيذ ، فالصلاة واجبة : هذا الشيء الثالث ، حينما لا يعرف الإنسان مثلاً حكم الصلاة أهي واجب أو سنة . أقول : صلاة الضحى صلاّها رسول الله ﷺ وتركها ، هذه المقدمة دليلها تاريخي تتبّع أفعال رسول الله ﷺ ، وكل ما فعله وتركه فإنما هو من قبيل السنة لا الفرض ، فصلاة الضحى سنة ، توصلت إذن إلى القضية الثالثة .فدائمًا تُحضر مقدمتين أو أكثر في بعض المعارف لتتوصل من المقدمات المعلومات لديك إلى مايسمى بالنتيجة أو المقدمة الثالثة . هذا العمل هو فكر . القرآن الكريم كما قلت ربط الفكر بالحركة لينبهنا إلى أنه غير مرغوب فيه ذلك الفكر الكسول المتعطل ، فالفكر من أجل الفكر ، لا يؤدي إلى نفع دنيوي أو أخروي ولا محل له ، لأنه لابد أن نفكر من أجل أن نصل إلى شيء إما في أمور دنيانا أو في أمور أخرانا ، أما الفكر من أجل الفكر ، أما الفكر بمعنى الهيمان وراء أخيلة ، ووراء شيء غير مبني على مقومات حقيقية لها مستندها ولها دليلها ، فهو نوع من التخيل وليس بتفكير . وللأقدمين كلام طويل جدًا للتفريق بين الفكر وبين التخيل وبين التدبر وبين التذكر وهذه القضايا لا نود أن نتناولها هنا بإطناب .

منهجيــة الفكــر

أيًّا كان الأمر ، إذا أدركنا معنى الفكر وحقيقته فإن أمامنا قضيتين : القضية الأولى هي أن نحدد معالم ومنهج فكرنا الإسلامي . فلابد لنا أن نقدم منهجنا في التفكير لأنفسنا وللناس الآخرين . مميزين في ذلك بين قضايا الفكر وقضايا الثقافة والمعرفة ومبينين وضع كل منها . هذا جانب من جوانب الأمر .

جانب ثان وهو أن لفكرنا الإسلامي في تاريخنا قضايا معقدة ومعضلات لا تزال قائمة ، لابد لنا من معالجتها . فيما يتعلق بهذا الجانب إذا اتفقنا على أن الفكر هو اسم لتلك العملية الذهنية أو اسم لتردد القوة العاقلة المفكرة في الإنسان قلبًا كانت أو روحًا أو ذهنًا بالنظر والتدبر لطلب المعاني المجهولة أو الأحكام أو النسب بين الأشياء ، إذا اتفقنا على هذا المعنى فإن لهذا الأمر منهجًا . الإنسان الغربي ينطلق في فكره من الفروض ، يفرض لكل شيء الفرض الأول فالثاني فالثالث فالرابع ويتأمل ويفكر ويتدبر في هذه الفروض ، ويخضعها لعملية الحذف والإضافة لكي يصل إلى الاستنتاج . بالنسبة لي كإنسان مسلم لدىَّ مصدران : المصدر الأول هو الوحي ، والوحي يعني الكتاب والسنة ، فهناك قضايا عليَّ أن أحددها ، هي التي أنطلق بالتفكير فيها من منطلق الكتاب والسنة ، وهناك قضايا أخرى أنطلق فيها من منطلق الوجود . الكتاب والسنة أو الوحي إنما جاء لإعطائنا التصور الصحيح عن الكون والحياة والإنسان لبناء العقيدة السليمة ، وإيجاد الإنسان الصالح ، فتناول قضايا الغيب ، وأجاب عن كل التساؤلات التي يمكن أن تعرض للإنسان في هذه القضايا وأشبع فيها الغليل ، وعالج العقد في هذه الأمور التي لم تستطع الفلسفة لدى الأمم الأخرى أن تعالجها ، وتناول قضايا محددة يمكن أن تتضارب فيها شهوات الإنسان ورغباته بحيث لا تستطيع أن تصل فيها إلى الحل السليم . قضايا

مثل قضية المرأة التي ضلت فيها الأمم ؛ لأن القضية فيها تعقيد ، تختلط فيها الرغبة والشهوة والمحبة والكراهة والتصورات . فلابد فيها من حل . قضايا المواريث ، قضايا العبادات ، الإنسان ضل فيها قديمًا ، كان يصل إلى حافة التوحيد ثم يُدخل على هذا التوحيد الشوائب . ولقد عرف الإنسان القديم كثيرًا من المحاولات في هذا الأمر ، يصل إلى حافة التدين ثم ينحسر ، يصل إلى التوحيد ثم الشرك . هذه أمور كلها يمكن أن تضطرب ، فعالجها الوحي وأعطانا فيها الحلول السليمة . قضايا العبادات ، سنن الكون العامة ، القواعد الأساسية في السلوك ، في الأخلاق ، كل هذه الأمور قد تناولها الوحي . فإذن أنا لا أنطلق في هذه القضايا من فروض ، وإنما أنطلق من الوحي ، فأبحث عن أية قضية في الكتاب والسنة ، وفيما يستند على القرآن والسنة من إجماع وقياس ، فإن وجدت الأمر فلا أسلك سبيل الفرض العقلي كما يفعل الغربي ، وأنطلق من الفرض الأول فالثاني فالثالث فالرابع فالخامس وأبدأ عملية السبر والتقويم والحذف والإضافة لأَصِلَ إلى التصور في هذا الأمر ، وإنما أصل إلى التصور من خلال معرفة النص ومراده ، وفي معرفة النص ومراده منهج خاص كامل ، هو المنهج الذي نسميه منهج الأصول أو منهج الأصوليين ، وهو ما نعبر عنه بعلم أصول الفقه . فطريقة التعامل مع النص واستنباط علاقة النص بالواقع ، ومناهج الوصول إلى فهم النص وتطبيقه ، هذه كلها مبحوثة في علم واحد يعتبر هو علم المنهجية بالنسبة لنا نحن المسلمين ، ألا وهو علم أصول الفقه .

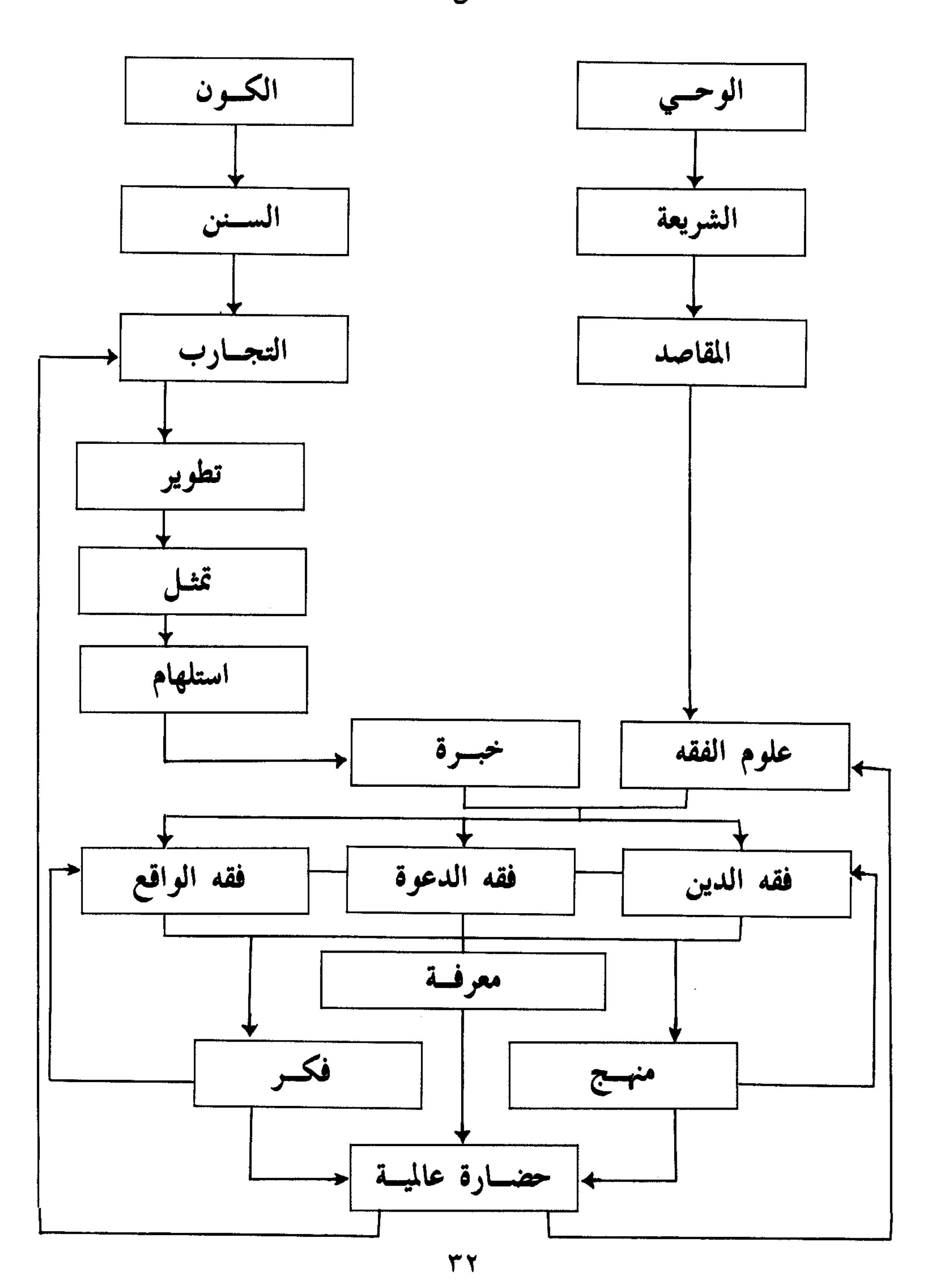
هناك جوانب أخرى وقضايا حياتية مختلفة لم تتناولها النصوص ولم تكن قضية من قضايا النصوص المباشرة ، لأن النصوص قد أعطت الإطار العام لها ، وطالبتني بصفتي إنسانًا عاقلاً مكلفًا أن استخدم عقلي وجهدي واجتهادي في الوصول إلى هذا الأمر . هذا انطلق فيه من مراتب الحدس المعروفة لدى المفكرين . ومراتب الحدس ثلاث : حدس حسي ، وحدس

ذهني ، وحدس فكري ، يعني على سبيل المثال لو نظرنا إلى شيء بهيج فالنظرة الأولى قد تفترض أن هذا الشيء الذي رأيته عن بعد شجرة ، هذا الحدس الأول الذي قام في الذهن ، تقترب منه أو يقترب منك فترى أنه يمكن أن يكون جملاً ، تقترب منه أكثر أو يقترب منك فتقول لا ، إنه حصان ، وهكذا تستمر إلى أن تتأكد منه بأن تصل إليه وتراه بشكل كامل فتقول هذا إنسان أو شجرة ، ويتحقق عندك الشكل المعني . هنا نعتمد على الكون وعلى الوجود وعلى السنن الكونية وعلى قدراتنا التي زودنا الله تعالى بها ، على عقولنا وما منحنا الله تعالى جل شأنه من وسائل ، لكي نختبر هذا الوجود، ولكي نكتشف هذه العلاقات، لكي نسخر هذا الوجود من أجل البناء والعمران، من أجل تحقيق الغاية التي خلقنا الله سبحانه وتعالى من أجلها، ﴿**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار**﴾ إبراهيم: ٣٣، ﴿**وسخر لكم الفلك تجري في البحر بأمره. وسخر لكم الأنهار**﴾ إبراهيم: ٣٢. ﴿**وآتاكم من كل ماسألتموه**﴾،إبراهيم: ٣٤. هذه الأمور نحن نستخدم فيها قواعد الشرع العامة وتوجيهاته والغايات والمقاصد، ونستخدم فيها هذا المنهج الذي هو منهج الحس والتجربة والعقل في كل ما يتعلق باكتشاف العلاقات وتنظيمها، وتنظيم وسائل الاستفادة منها ، ثم إخضاعها لحاكمية الله سبحانه وتعالى وهي الحاكمية المطلقة .

مفهــوم المعرفـة

سبق القول أن مصادر معرفتنا هي الوحي والوجود ، أما مصادر المعرفة المعاصرة فهي الوجود وحده ، ولذلك فتعريف المعرفة لدى علماء التربية والمعرفة اليوم هو التعريف المعترف به لدى (اليونسكو) وسائر المؤسسات الثقافية «**المعرفة كل معلوم خضع للحس والتجربة**» ، فكل ما يتعلق بالله

شكل ٣


الوحـــي
الكــون
الشريعة
السـنن
المقاصد
التجـارب
تطوير
تمثل
استلهام
خبـرة
علوم الفقه
فقه الواقع
فقه الدعوة
فقه الدين
معرفـة
فكـر
منهـج
حضــارة عالميــة

وبالآخرة وبالأنبياء كل هذا يعتبر ليس من العلم ، ولذلك حين يتحدثون عن هذه الأمور يلحقونها بالخرافة ، يلحقونها بالأساطير ، يلحقونها بأي شيء ، لكن لا يعتبرونها معلومة . وحين يطلب مني كإنسان مسلم أن أبين ماهو البديل عندي لهذا التعريف أستطيع أن أقول : **المعرفة كل معلوم دلّ عليه الوحي والحس والتجربة** ، تعريف إسلامي ، ولا يمكن أن أقبل هذا التعريف الذي تسير كل المدارس عليه الآن ، وهو تعريف ملحد : «كل معلوم خضع للحس والتجربة» ، نحن لا نستطيع أن نتقبل هذا ، وإن كانت كل أجهزة تربيتنا وتعليمنا ومدارسنا وجامعاتنا تأخذ بهذا التعريف وتعتبره هو التعريف المقبول للمعرفة ، لكننا نستطيع أن نقول هذا مرفوض بالنسبة لنا ، إنما نقبل كل معلوم دل عليه الوحي ليكون علمًا ؛ لأن الوحي جاءني بطريق علمي ألا وهو الإعجاز والتحدي ، فالقرآن الكريم تحدى الناس أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة وعجزوا . وبالتالي فالمعرفة عندنا نحن المسلمين كل معلوم دلّ عليه الوحي والحس والتجربة ، والعقل يدخل في الحس كذلك .

بعض المعضلات الفكرية

أما الجانب الثاني من قضايا الفكر التي تهمنا فهي تلك المعضلات التاريخية الكثيرة التي كان لها أسوأ الآثار في بناء الفرد المسلم عقليًّا وثقافيًّا ونفسيًّا وتربويًّا ، والتي أحدثت أسوأ الآثار كذلك في كيان الأمة الإسلامية وفرقتها وجعلتها شيعًا وأحزابًا وطوائف ومذاهب شتى . هذه القضايا كثيرة لابد لها من معالجة ، ولابد لها من حلول ، ثم لابد لها من إعادة طرح وتقديم للخروج من المأزق الفكري أو الأزمة الفكرية التي طالما أفسدت على الأمة محاولاتها في التقدم والحضارة .

١ ــ معضلة العقل والنقل

في مقدمة تلك المعضلات الفكرية القديمة والحديثة التي فرقت كلمة الأمة وشتت شملها قضية الصراع المفتعل بين النص والعقل. تاريخنا لم يعرف قضية بهذا الاسم إلا بعد عصر الترجمة، وبعد أن طال على المسلمين الأمد وقست منهم القلوب. على عهد الرسول ﷺ بل وعهد الصحابة رضوان الله عليهم، لم يكن يُعرف شيء اسمه نص وشيء اسمه عقل متمايزان يعيشان حالة صراع وتناقض وتناف وحرب ومعركة بين الإثنين، كان النص والعقل يسيران معًا جنبًا إلى جنب خاضعين لحاكمية الله المطلقة، النص يرشد العقل ويوجهه، والعقل يتفهم النص ويستوعبه ويحسن تطبيقه وفهمه وربطه بالواقع دون أي عملية صراع. ولكن الآن ما أكثر الكتابات وما أكثر الدراسات التي تتناول قضية النص والعقل، وهي قضية مفتعلة ـــ كما قلت ـــ كانت من نتائج الصراع المبكر الذي حدث يوم انقسمت الأمة إلى طوائف وإلى فرق: فريق تمسك بالنص في قضية الإمامة ورفض العقل، وفريق طرح العقل في مواجهة النص. قضية تحتاج إلى معالجة وتحتاج إلى إعادة طرح وتفسير. إنك تستطيع الآن لو أن مريضًا لديه خُراج وعنده آلام، تستطيع أن تعطيه بعض المسكنات فيفقد الإحساس بالألم لكن لا يعني أنه شفي. يحتاج المريض إلى إزالة الجرثومة برفع الخراج، وقد لا يكون إلا بعملية جراحية. نحن عالجنا هذا الأمر بكتابات وقلنا: لا، ليس هناك نص وعقل متمايزان، والشريعة عقلية، والنص طيب والعقل طيب. ولكن دائمًا يعاد طرح المشكلة وينشب الصراع من جديد. فهذه المعضلات الفكرية هي بمثابة الخراج، بمثابة المرض الخبيث في الجسم الذي يحتاج إلى استئصال، والاستئصال يحتاج إلى دراسة وتقديم مقنع. فحينما نقدم مثلاً دراسة في بيان المنظور الإسلامي الحقيقي لقضية النص والعقل، ونفسر كيف تحول النص والعقل إلى فريقين

وافتعل صراع بينهما وحدث ما حدث ، آنذاك ينتهي الخُراج ويصبح واضحًا ومفهومًا ، وكلما أعيد طرح المشكلة كان الناس على وعي كافٍ يحول دون تحويلها إلى قضية صراع ، ودون أن تتحول الأمة إلى فريقين يصطرعان حول هذا الموضوع .

٢ ـ معضلة السببية

هذه قضية من قضايا العقل المسلم الكبيرة ، فالله سبحانه وتعالى ربط المسببات بالأسباب ، هكذا اقتضت سنته أنه لا شيء يحدث في هذا الكون بدون أسباب ، وهو سبحانه وتعالى الخالق للأسباب والمسببات وسبحانه وتعالى قد سخر من ذلك الإنسان الذي يريد أن يصل إلى نتيجة دون مقدمات ، أو إلى سبب دون أسباب ، فقال: ﴿**كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**﴾ الرعد: ١٤، تريد الماء اذهب إلى الماء واغرف واشرب ، أما لو مسكت السبحة وظللت تذكر الله سبحانه وتعالى كما تشاء من أجل أن يأتي الماء إليك ليدخل فاك فلن يفعل ، سنة الله اقتضت أنك أنت الذي تباشر عملية الشرب ، وأنك أنت الذي تطلب الماء . ﴿**النجم والشجر يسجدان**﴾ الرحمن: ٦، فالنجم خاضع للسنة ، والخضوع للسنة الإلهية هو قانون الله سبحانه وتعالى الذي لا يمكن خرقه إلاّ بإرادته ، لا يخرقه إلا واضعه على سبيل المعجزة أو الكرامة وإلا فالسنن لابد من ملاحظتها ، هذه هي عقيدة الفرد المسلم .

نجد في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري أن القضية تثور بطريقة أخرى جاءتنا بعد الترجمة من اليونان والتراث العالمي ، وإذا بهم يقولون : إنَّ القول بوجود سبب فيه معنى الشرك . كيف ؟ قالوا : لأن السبب هو المؤثر ، وإذا قلنا بوجود مؤثر غير الله سبحانه وتعالى فقد أصبح

ذلك شركًا.. فماذا تقولون ؟ قالوا : نقول بإن العلة والسبب الوحيد في الكون هو الله سبحانه وتعالى . تصوروا كم كان لهذه الفكرة من أثر تربوي سيء على الأجيال المسلمة بعد ذلك ، أثر خطير ، دمر الشخصية الإسلامية تدميرًا تامًا ، أصبح علماء الكلام يناقشون في قضية السبب ، فحتى الإمام الغزالى نسبوه إلى البدعة حينما قال : النار تحدث الإحراق بمشيئة الله سبحانه وتعالى.. قالوا: كيف تقول النار تحدث الإحراق ، لأن النار لا تحدث الإحراق . قال لهم: إذن ماهي النار.. ربنا سبحانه وتعالى خلق فيها هذا ، ولولا أنه قال ﴿**يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم**﴾الأنبياء:٦٩، لاحترق إبراهيم ، ولكن جاءت سنة أخرى ، أمر آخر إلى النار أن تكون بردًا وسلامًا ، فتحولت طبيعتها وتغيرت بموجب الإرادة الإلهية والأمر الإلهي . لذلك تجد العجب العجاب حينما تقرأ تعريفات المتكلمين للعلة والسبب فيقال لك : العلة هي الموجب بإرادة الله . وأخيرًا حل الأشاعرة المشكلة بأن قالوا : العلة هي المحرك للسبب وليست السبب . نقاش سخيف أخذ من العقل المسلم قرابة ثلاثة قرون إلى أن وصلنا إلى حل وسط ورأينا التناقض الفظيع . فالله سبحانه وتعالى وضع سننًا وعللاً وأسبابًا ومقومات وخلق نتائج ، فمن يستطيع أن ينكر هذا ؟.

حين ندرس التأثير التربوي على العقل المسلم، نجد أن الإنسان المسلم أصبح شخصية قلقة مهزوزة ، مرة تعتبر السبب وتأخذ به ، ومرة تلغي السبب ، مرة تنتظر حصول الشيء بدون أسباب ، ومرة تتوصل إلى النتيجة بأسباب غير الأسباب الموصلة إليها ! وحينما يعجزها الأمر تقول كل شيء بإرادة الله وتنسب الأمر للإرادة الإلهية ، ويصبح الإنسان في مأزق عقائدي ، يعني إما أن تناقش الموضوع وتحاول أن تفنده فتنسب إلى الكفر أو البدعة ، وإما أن تسكت وتكون إنسانًا لا منهجيًا ولا علميًا ، لا

تستطيع أن تربط بين مسبّب وسبب ، ولا تستطيع أن تربط بين نتيجة ومقدمات ، فإذن هذه قضية أيضًا من القضايا الهامة.

٣ ــ ومعضلات أخرى

● **قضية التأويل:**

قضية التأويل وخاصة فيما يتعلق بصفات البارىء عز وجل وتأويل المتشابهات والنصوص وماجرته علينا من مشكلات ، هي كذلك قضية جديرة بالاهتمام وتكثيف البحوث والدراسات حولها.

● **قضية الجبر والاختيار:**

وهي قضية من قضايا الفكر التي لابد لها من معالجة ، لا تزال تثار اليوم وستثار غدًا وبعد غد . فلو عرفنا أن خلفية هذه القضايا خلفية سياسية ، يعني باختصار شديد نستطيع أن نقول مثلاً : معاوية رضي الله عنه حين آلت إليه الخلافة سمع أحد الصحابة رضوان الله عليهم يروي حديثًا عن رسول الله ﷺ كان يردده في بعض الأحيان.. «اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا راد لما قضيت...» ويقولون أن معاوية تلقف هذا الحديث وعممه على الجميع ، وطلب من الناس وبدأ في مقدمتهم يردده في الصباح وفي المساء ، ويعتبره من الأمور المأثورة التي لابد من تردادها في الصباح والمساء ، هذا الشيء طيب ، وذكر الله سبحانه وتعالى هو جزء من عمل اليوم ، لكن القضية الأساسية التي ربطت به أو بُنيت عليه ، وعملية ترويج معاوية لهذا الأمر ، كانت مرتبطة بأمر أن كل هذه الأشياء التي عملتها أنا أو تُعمل في الدولة هي لله سبحانه وتعالى وهو المسؤول عنها . مما دفع الحسن البصري ــ والرجل من أئمة التابعين وكبارهم ، وعاصر وشهد واتصل بخمسمائة من أصحاب رسول

الله ﷺ ــ أن يكتب رسالة قيمة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يعاتبه فيها على إشاعة هذا النوع من الأفكار ، ويقول له إنّكم ترسلون شرطتكم يهينون الناس ويظلمون الناس وتقولون هذا بقدر . إن من وكلائكم وعمالكم من يشرب الخمر ويعتدي على الناس وتقولون هذا بإرادة الله ﴿... **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾ الأعراف: ٢٨.
رسالة طويلة قيمة جدًا تعالج وتبين الخلفية السياسية وراء قضية الجبر والاختيار والتي تحولت إلى قضية عقيدية . حينما ندرسها على أنها قضية أوجدتها السياسة ، ونخرج ماكتب حولها بعد ذلك وكل النقاش المتعلق بها من المأزق العقيدي تصبح قضية فكرية تناقش سياسيًا وتحلل وتنتهي ، ولكن حينما نناقشها من الزاوية العقيدية تكون شكلاً آخر . مناقشتها من الزاوية العقيدية عملية ممزقة للأمة باستمرار ؛ لأننا كلما ذكرناها ينقسم الناس فريقين : فريق جبري وفريق قدري . وبالتالي هذا يكفر هذا وهذا ينسب ذاك إلى البدعة . لكن حينما تقدم بطريقة مدروسة محللة تأخذ خلفيتها السياسية والفكرية ، وكيف نشأت ويقرأها الناس تنتهي ، وتصبح قضية أخرى بعيدة عن المأزق الذي تناقش فيه .

قضية التقليد والاجتهاد:

قضية أخرى من قضايانا الحادة التي تطرح في كل زمان ومكان ، الاجتهاد والمذهبية واللامذهبية ، كسر باب الاجتهاد ، غلق باب الاجتهاد ، إلى غير ذلك.. قضية تحتاج إلى معالجة لأنه كانت لها آثارٌ تربوية خطيرة في حياة الأمة .

مثلاً : وصف الجاحظ أُمة المسلمين في القرن الثالث بقوله : أمة قد أصبحت تحمل عقلية العوام ونفسية العبيد وطبيعة القطيع.. في الحقيقة هذا الوصف يصلح لنا ، وقد وصف الجاحظ به الأمة في تلك الفترة ، وهي

أمة كانت لا تزال سيدة أمم الأرض والدولة الأولى في العالم ، ومع ذلك كان يقول أمتنا اليوم هي أمة تحمل عقلية العوام ونفسية العبيد وطبيعة القطيع..

هذه من أين جاءت ؟ جاءت من قضية التقليد . وقضية التقليد في البداية أجدادنا وأسلافنا أرادوها قضية اختيار للأمة مؤقت . إن الأمة كانت تمر بأزمة ، حكامها يريدون أن يفعلوا ما يشاؤون ويريدون أن يستعينوا بطائفة من علماء الدنيا أو علماء السوء حولهم يعرفونهم بكل شيء ، فأرادت الأمة أن تدافع عن دينها ، فقالت : لا ، أي شيء لم يرد في الكتاب أو السنة ، ولم يرد في أقوال هؤلاء الأئمة الأربعة الذين يعتد بعلمهم ودينهم وورعهم وتقاهم مرفوض.. يريدون أن يقفلوا الباب أمام وعاظ السلاطين بهذه الطريقة ، ماكانوا يريدونها قضية تصبح هي الشرع اللازم وتنسي آيات الكتاب وتنسي أحاديث النبي ﷺ ، ويأتي عالم من «كبار علماء الحنفية» في القرن الرابع الهجري أبو الحسن الكرخي ليقول : «كل آية أو حديث يخالف ماعليه أصحابنا ، فاعلم أنه مؤوَّل أو منسوخ» فأصبح الأصل هو المذهب الحنفي والفرع هو الكتاب والسنة . كانت هذه قضية في غاية الخطورة ، وأزمة من أزمات العقل المسلم الحادة ، فكيف تحولت القضية من أمر أريد به الاحتياط إلى أمر عادي وله آثاره النفسية والتربوية على هذه الأمة ؟

صور من الأزمة الفكرية

أنني أعتبر حقيقة أن الذي حوَّل الأمة إلى قطيع يسوقه كل من يتحكم فيها وفي شؤونها هو مثل هذه القضايا . فخلفيتنا التربوية والثقافية هيأتنا لأن نكون بهذه الصورة ، أناسًا مهزوزين ، أحد كبار فقهائنا الإمام

الماوردي رحمه الله وغفر لنا وله يقول : «وتجوز إمامة الجور وتمضي أحكامها ، وتجوز إمامة الجبر يعني المتغلب» ويقول «وتنعقد الإمامة ببيعة اثنين قياسًا على عقد النكاح» وهو من كبار الفقهاء توفي سنة ٤٥٠ هـ. فحينما تكون في تراثنا الفكري والفقهي هذه الثغرات (الآن أي شخص يبايعه اثنان صار إمامًا قياسًا على عقد النكاح ، أي من يتزوج حرمة كمن يحكم أمة !) ، يكون طبيعيًّا ما أصابها من الوهن والضعف . ومشكلات الأمة اليوم حتمًا لها علاقة بهذه الأفكار ، هذه الأفكار هي التي كانت وراء تحول الأمة إلى قطيع ، فيحدث سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وتعلق تلك الرقاب وتصبح المآذن من جماجم ، وتسيل الأنهار من دماء المسلمين .

هذا الفكر الميت الذي لا يستند إلى شيء من كتاب الله ولا إلى شيء من سنة رسول الله ﷺ ، هذا الفكر الذي نجم عن مثل هذه العمليات ، لابد من معالجته . المعالجة لابد أن تكون بعمليات جراحية . يعني لو أنَّ أحد الطلبة في الجامعات يأخذ موضوع رسالة مثلاً حول الاجتهاد ، فتطلب منه أن يحلل ويدرس ، قد يبدأ في هذا وربما وجد من يوجهه ، لكن هذا المسكين لا تجاز رسالته إلا إذا أخذت الشكل الوصفي البعيد عن التحليل . ودائمًا تسمعون في المناقشات التي تجري لرسائل الماجستير والدكتوراه في أي جامعة من جامعاتنا العربية والإسلامية يجرم الطالب إذا قال «الذي أراه كذا» ، إذ يقال له من أنت حتى ترى ؟ كيف تقول والذي أرى ؟ ومن أين أتيت بهذا ؟ وكأن المطلوب من الإنسان أن يلغي عقله ورأيه . وإذا أتى بكلمة ولم ينسبها إلى مرجع قديم فهذه جريمة من الجرائم ، ويمكن أن ترد رسالته ويمكن أن يفعل بالباحث ما يفعل . فالمطلوب دراسات ليست وصفية ، وإنما دراسات تحليلية نقدية ، تعيد طرح هذه القضايا ، تبين سلبياتها وآثارها ، والقضايا التي بنيت عليها ، والمشكلات التي انبثقت عنها؛ لكي نستطيع أن نصحح مسار العقل المسلم.

على طريق العلاج

إذن أزمة الفكر التي نعيشها أزمة حقيقية موجودة في جانب المصادر والمناهج ، جانب القضايا الأساسية التاريخية التي أحدثت أسوأ الآثار السلبية في عقليتنا وفي نفسيتنا وفي طريقة تفكيرنا ، والتي أحبطت محاولات إصلاح كثيرة جدًا . محاولات الإصلاح في تاريخ هذه الأمة كثيرة جدًا ومعظمها محاولات مخلصة ناجحة ، لكن كثيرًا ما تأتي هذه القضايا في وسط الطريق ، لأنها «خُراج» ، فينفجر ، فإذا به يمزق أية حركة إصلاحية أو يحبطها ، أو يصادرها قبل الوصول إلى نتيجة . فنحن إذن في قضية الفكر بالذات محتاجون إلى وضع مناهج للفكر السليم ، بعيدًا عن الشخصية الفكرية الغربية أو سيطرتها . معالجة معضلاتنا أو مشكلاتنا الفكرية بالنسبة لما هو مطروح حاليًا . نعتقد أن لنا شخصيتنا المميزة في هذا المجال . وأن هناك قضايا مشتركة بيننا وبين بقية البشر ، فلابد أيضًا من تحديد القضايا المشتركة والقضايا ذات الطبيعة الخاصة . فمثلاً جميع العلوم والقضايا الفكرية المتعلقة في موضوعات العلوم الطبيعية وظواهرها والمادة وخصائصها هي من قبيل الفكر المشترك بيننا وبين الناس الآخرين ، مناهجها تتميز بالحياد العلمي ؛ لأنها قائمة على التجربة الملموسة بالحياة المادية . أنت لك عينان والغربي له عينان ، لك أذنان وله أذنان ، لك دماغ وله دماغ ، الحياة لا تختلف ووظائفها مشتركة وقدراتها مشتركة ، لذلك فالحقائق المادية مثل الدليل التجريبي الحسي ، والحياة لا تختلف ، والتجارب لا تختلف من الممكن أن يقوم بها هذا الإنسان أو ذاك . ومن ثم فهي لا تتغاير بتغاير القوميات والأديان والحضارات والمذاهب ، ويمكن الاستفادة من كل ما وصلت إليه البشرية في هذا المجال ، فعلوم الكون واحدة على المستوى الإنساني ، وموضوعاتها المادة وظواهرها كذلك لا تتغير باختلاف الأفكار

والأديان والحضارات ، فعلوم الرياضيات بفروعها ، الكيمياء الطبيعية ، الطب ، (الجيولوجيا) ، لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الأديان . يلتحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها العديد من ثمرات التجارب الإنسانية في الوسائل وفي النظم والمؤسسات والخبرات ، ترشِّد الأداء الإنساني ، وهو يسعى إلى تحقيق الغايات . فعلى الرغم من تمايز غاياتنا كمسلمين ومقاصدنا عن غايات ومقاصد الآخرين ، لكن التجارب الإنسانية في الوسائل والنظم والمؤسسات كثيرًا ما تكون صالحة ممكنة الاقتباس ، مع شيء من التطور والتمثل والاستلهام . مثلاً هذه المؤسسات الموجودة في الغرب لرقابة الدولة ، المؤسسة البرلمانية على سبيل المثال ، مؤسسة جيدة توفر نوعًا من الرقابة ، لكن لا أريد فيها تطبيق الديمقراطية ، وإنما أريد أن تكون مؤسسة لتطبيق الشريعة ومراقبة تطبيق الشريعة ، مراقبة الحاكم في تطبيق الشريعة . الصورة بالنسبة لي أمر غير ديمقراطي ، الصورة التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بها هو أن نتشاور جميعًا من أجل الوصول إلى الرأي الأصوب فيما تشاورنا فيه ، الديمقراطية الغربية عملية صراع بين الأقلية والأكثرية بين رجال الكونغرس والنواب ، بين الحكم والمعارضة ، من أجل دعم قرار معين . كلما كثرت الاصوات لصالح قرار معين ، كلما أخذ بذلك القرار ، فكأن الأمر هنا عملية صراع لاتخاذ قرار لصالح مجموعة من هؤلاء . بالنسبة لي الشورى عندي هي عملية حوار وتعاون من أجل الوصول إلى الحق والصواب والأفضل ، فكل هؤلاء يتعاونون معًا في حوارهم ، المعارضة والحكم ، هذا الحزب وذاك من أجل الوصول إلى ماهو أفضل . هذا شيء مغاير ، لكن المؤسسة نفسها هل أقول كما تقول بعض الفئات الإسلامية أنه لا يجوز الانتقاص من سلطة الحاكم الفرد ، الخليفة يجب أن نعطيه كل الصلاحيات وأن نحاسبه على كل الأمور ؟ من

يحاسبه إذا أعطيته أنت جميع الصلاحيات كما هو الأمر في كثير من بلداننا الإسلامية ؟ ولكن الفلسفة التي وراء المؤسسة ، طريقة استخدام المؤسسة لديَّ فيه توجيه قرآني ، لكن المؤسسة نفسها وطريقة الوصول إليها بالانتخاب المباشر أو غير المباشر تجارب إنسانية يمكن أن أدرسها وأحللها و استفيد منها ، دون أن اعتبر مقلدًا أو تابعًا . فإذن العلوم الطبيعية والمادية والتقنية والتطبيقية احتاج فيها فقط إلى التوجيه . المطلوب اليوم أن توجه هذه العلوم وجهة إسلامية في أهدافها وغاياتها ومقاصدها ، فحين أحقق التقدم العلمي أحققه على أساس أنني لا أريد علوًا في الأرض ولا فسادًا . الحضارة المعاصرة حققت تقدمًا لإرادة العلو في الأرض والفساد ، فالقوى الكبرى تذهب إلى القمر وتجري تجارب ، تصنع الأسلحة الكيماوية والجرثومية وغيرها ، كل هذه الأشياء من أجل العلو في الأرض ومن أجل الفساد . أنا بالنسبة لي يجب أن أعتني بكل هذه العلوم ، ولكن ينبغي أن أكون محكومًا بهذه الضوابط العامة . لا أبتغي العلو في الأرض ولا أسمح لأحد أن يكون جبارًا، ولا أبتغي الفساد في الأرض.

واحد يريد أن يزرع أفيون أقول له هذا ممنوع.. سيقول لماذا؟ هذه زراعة والله أباحها لنا ؟ أجيب نعم ، ولكن هذه الزراعة ستؤدي إلى الفساد ، فلتزرع الأوراق الطبية مثلاً في رعاية خاصة . إذن بالنسبة لهذه العلوم مطلوب إيجاد هذا الاتجاه ، بالنسبة للمؤسسات مطلوب اقتباس النافع منها ووضعه وحفظه بإطار الإسلام .

لكن هناك قضايا أخرى أساسية خطيرة جدًا ، وهي هذه التي يسميها الغرب بالعلوم الإنسانية والاجتماعية ، فهذه بيت الداء . هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية موضوعها وهدفها الإنسان ، وتختلف المدارس والأديان والحضارات فيها ، فلكل مذهب أو حضارة أو ثقافة أو دين فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان ، فكرته الكلية عن الإنسان وغاية وجوده وطبيعة

هذا الوجود ، والأخلاق التي ينبغي أن تسود ، والنظم والعلاقات التي ينبغي أن تكون ، العلوم والثقافات والفنون التي ينبغي أن تصل إليه أو لا تصل ، كل هذه الأمور هي موضوعات العلوم الإنسانية والاجتماعية . هذه العلوم كما قلنا تختلف عن علوم المادة وتختلف عن قضايا المؤسسات ، ليست فكرًا مشتركًا عالميًا وإنما تتمايز فيها الأديان والمذاهب ، ربما نجد في بعض مناهجها نوعًا من المشترك الإنساني . فإذا تتبعنا قضية الإستقراء في البحث، ودراسة الوسائل، أمكن أن نعرف ماهو صعب أو سهل ، ماهو ضار أو نافع ، ماهو مصلحة أو مفسدة ، ربما بالنسبة للمناهج يمكن أن نجد مشتركًا إنسانيًا بيننا وبين الحضارات الأخرى ، ولكن بالنسبة لتصور الإنسان ولتصور الحياة ولتصور الغايات والأهداف تختلف الأديان تمامًا .

إن العالم المسلم حين يدرس الهندسة أو الطب لا يجد مشكلة في التوفيق بين الفكر الطبي أو الهندسي وبين الوسائل . لكنه حينما يدرس الفلسفة الغربية التي وصلت إلى حد أن جعلت الإنسان إلهًا في هذا الوجود ، وجعلت الله سبحانه وتعالى دون مرتبة الإنسان ، يقولون يجب على الله رعاية المصلحة ، ويجب على الله أن يغفر ، ويجب على الله أن يعطي كل الأشياء ، ويجب أن يقبل الخطايا ويسامح ، ولكن ليس له أن يقول هذا حلال وهذا حرام ، يجب أن يحلل الزنا ، يجب أن يحلل الربا في المجال الاقتصادي، كل الحدود تعداها الإنسان بهذا القول، ويضيفون: ليس لله سبحانه وتعالى أن يدخله النار . هذا تهديد للإنسان ولحريته . كل ما يحتاج إليه أن يذهب بجسده في زيارة لكنيسة وتسوى العلاقات بينه وبين الله.

إنني أشمئز حين أسمع أو أقرأ عن الفنون الغربية التي اعتمدت العري ، واعتبرت أن قيم الجمال كلها تتعلق بالرجل العاري والمرأة العارية ، وتماثيل العري تملأ الساحات والميادين . أنا اشمئز من هذا ؛ لأنني إنسان مسلم ابن حضارة عرفت الستر ، إن انحدرت من الفراعنة فالفراعنة في مختلف

ظروفهم كانوا يضعون غطاء ، وإن انحدرت من البابليين أيضًا كان عندي حضارات مستورة إلى حد ما ، فمن أية جهة انحدرت من أي مكان نشأت أجد أن العري عندي لم يكن أمرًا مقصودًا . العري عندي إهانة للإنسان بينما العري عند الغرب كرامة ، لذلك فأنا أنفر من فنونه ومن آدابه ، ولا أجد هذه الألفة التي أجدها في العلوم التطبيقية والتقنية التي أفرزتها حضارته وعقله . لذلك فإن الفلسفة والعلوم الاجتماعية والفنون والآداب والعلوم الإنسانية يجب أن تكون من قبيل الصناعات المحلية .

سأنتقل إلى قضية المعرفة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية . هذه العلوم موضوعها الإنسان فردًا ومجتمعًا ودولة ، وثقافة الإنسان ونفسيته وعقليته، وكل منهما يخدم جانبًا من هذه الجوانب . أول شيء علينا أن نفعله هو أن نقضي على خرافة أن القرآن الكريم والسنة النبوية مصدران فقط للحكم الشرعي : حلال أو حرام . هذه نعتبرها خرافة وقضية خطيرة أصابت العقل المسلم في وقت مبكر ، فجعلته يلغي حوالي ست آلاف آية من آيات القرآن الكريم ، ويتشبث بجملة آيات محدودة هي الآيات المتعلقة بقضايا الحلال والحرام فقط . نحن نريد أن يتحول القرآن الكريم إلى مصدر ثقافة ومعرفة كما هو مصدر للحكم الشرعي . الفقهاء قالوا آيات الأحكام ثلاثمائة آية ، وبعضهم قال خمسمائة آية هي مجموع آيات الأحكام ، وقالوا إن أحاديث الأحكام تتراوح بين خمسمائة إلى ألف ومائة أو مائتين.

نحن نريد أن نقول نعم لكل هذا ، ولكن لدينا قضايا أخرى هي القضايا التي عرفت بالعلوم الإنسانية والاجتماعية ، القرآن الكريم تناولها وبحثها ووجه إليها ، ولابد أن نكتشف هداية القرآن الكريم في هذه المجالات . علم النفس يدرس الإنسان ، علم النفس يدرس النفس

الإنسانية ، علم الاجتماع يدرس المجتمع وقضاياه ومشكلاته . هذه الأمور تعرض لها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، كيف نجعل القرآن الكريم والسنة النبوية لا مصدرين للأحكام فقط وإنما مصادر للثقافة والفكر والمعرفة والحضارة ، يرجع إليها كل مسلم ، ولا يمر يوم على مسلم مهما كان تخصصه إلا ويتعامل مع آية أو حديث ؟ من أجل أن نفعل هذا:

(١) يجب أن نعيد قراءة القرآن الكريم وما صح من السنة النبوية المطهرة ، ونقوم بعملية تصنيفها وتوزيعها على قضايا العلوم الإنسانية والاجتماعية . لنكتشف توجيهاتها وأحكامها . كثير منها قد اختلط بعلم الفقه في تاريخنا ويحتاج إلى إعادة درس وتصنيف ، وبعضها لم يلتفت إليه أئمتنا من قبل علينا أن نكتشفه . وكما وضع الفقهاء والأصوليون مناهج الاجتهاد للوصول إلى الحكم الشرعي لابد أن نضع منهاجًا للتعامل مع الكتاب والسنة في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية لنتوصل من خلاله إلى كيفية استخدام الكتاب والسنة في هذه المجالات .

(٢) لابد من **الاضطلاع على كل محاولاتنا التراثية في مجالات وقضايا هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية.** لأن بيننا إخوة متخصصين في التربية ، وإخوة متخصصين في الإعلام وفي علم النفس.. عندي شاب جاء يعمل معنا كمساعد منذ فترة ، قدمت له كتابًا من كتب فخر الدين الرازي ، والشاب تخصص علم نفس وقد درس في أمريكا ، هذا الشاب لم يعرف يومًا أن المسلمين يعرفون شيئًا يسمى علم نفس ، فجاءني وقال : أنا أستغرب ، فكل الذي قرأته في الجامعة ناقص وحتى المصطلحات مخيفة ، فهل صحيح أن هذا الكتاب موجود من سنة ٦٠٦ هـ ؟ فقلت نعم ، هذا العالم توفي سنة ٦٠٦هـ ، وهذا الكتاب موجود قبل أن يخرج فرويد وأصحاب مدارس علم النفس المختلفة بقرون.

هذا أحد أبناء المسلمين ــ على سبيل المثال ــ لا يعرف أن القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث يمكن أن يكونوا مرجعًا له ، ولذلك يتحول إلى أستاذ علم النفس وإلى طبيب نفساني ، ولكنه في كل منطلقاته ومناهجه يتعامل من خلال المفهوم الغربي والرؤية الغربية والفلسفة الغربية . فإن المطلوب أن توجد مشاريع لتيسير اضطلاع المتخصصين في هذه المجالات على مالدينا في التراث الإسلامي وتصنيفه ونقده وغربلته ودراسة مافيه مما يتعلق بهذه القضية ويعالجها.

(٣) لابد من **دراسة التراث المعاصر** ، هذا الذي يسمى بالتراث الغربي تراث إنساني ، كل البشرية قد أسهمت فيه ، وهم قد استفادوا من كتب أسلافنا كثيرًا . وتمثلوها وعرضوها من رؤيتهم ومنظورهم . لابد أن ندرسها ولكن بغير الطريقة التي ندرسها بها حاليًا . لابد أن ندرسها دراسة ناقدة فاحصة ، ومعنا مقاييس الكتاب وموازين السنة النبوية المطهرة، مزودين بما في تراثنا من رؤية في هذه المجالات، ندرسها دراسة نقدية فاحصة تمكننا من غربلتها ومن التمييز بين غثها وسمينها وصالحها وطالحها ونافعها وضارها، وتمثل المفيد الصالح منها بعد ذلك. ومن أجل الوصول إلى الهدف في هذا لابد من وضع منهاجية في التعامل . وكما قلت إذا كان إخواننا الأصوليون قد وضعوا منهاجية للتعامل مع النصوص الشرعية في مجال أصول الفقه فنحن لابد أن يكون لنا منهج للتعامل في هذه المجالات ويعطينا فيها المطلوب، ومجمل هذا التطور يمثله (الشكل الأول) الذي عرضناه حين التطرق لأنماط التعامل مع الفكر الغربي.

وفي الأخير ، أشير إلى أن المعهد العالمي للفكر الإسلامي يقوم على هذه القضية بمحاولة وضع مشاريع وتحويلها إلى أوراق عمل أما الوسائل التي يستخدمها فهي:

• **الندوات** : مثل ندوتنا هذه حيث جلسنا وتحدثنا وسنناقش ونبلور أفكارنا وآراءنا ونصبح على قدر من الوعي المشترك على هذه القضايا . ندواتنا أحيانا تكون متخصصة بعلم محدد ، وأحيانًا تشمل حزمة علمية كمايقال مثلاً مجموعة العلوم السلوكية ، أو نأخذ علم التربية وحده أو علم النفس وحده . ومن هذه الدراسات التي يقدمها العلماء أو الأساتذة المشاركون تتبلور رؤية في سائر هذه القضايا .

• نقوم بعملية **استفتاء العلماء والباحثين** المتخصصين الذين نكون قد اقتنعنا بقدرتهم على العطاء والإبداع في هذه المجالات .

• نقوم **بمحاولة تشجيع طلبة الدراسات العليا** على أخذ موضوعات من شأن دراستهم لها أن تشكل تراكمات في هذه المجالات يمكن توظيفها والاستفادة منها في أوقات لاحقة .

• نقوم **بعملية نشر الأبحاث والدراسات** من خلال طرق النشر المختلفة ، التي تستخدم الكتاب والمجلة والصحيفة وغيرها من الوسائل المناسبة .

• **نتبنى بعض الدراسات الجادة** التي يتقدم بها أصحابها سواء قبل تخرجهم أو بعد حصولهم على درجاتهم العلمية .

• نقوم في بعض الأحيان **بإعداد مشروعات علمية** واسعة يشترك فيها أكثر من أستاذ ؛ لإصدار دراسة أو الكتابة في قضية ، مما يساعد على تبادل الآراء ، وتبادل الأفكار .

• **إيجاد نوع من (العصف) الفكري من أجل بلورة هذه القضايا.**

هذا الاستعراض السريع جدًا لهذه القضية والعام في الوقت ذاته يوضح لكم جسامة الأزمة وخطورة القضية التي نتصدى لها . وكما قلت في البداية

نحن نعتقد أن هذه القضايا لو توافرت على دراستها جامعاتنا في العالم الإسلامي الخمسون وذهبت وانصرفت بكل ما لديها فربما تستطيع ــ بعد خمسة عشر سنة أو عشرين سنة ــ أن تعطينا شيئًا ما . أما معهد كمعهدنا بجهوده الصغيرة فربما يحتاج إلى أجيال . لكن مهمتنا الأساسية فيما أعتقد هو حسن التخطيط والوصول إلى تصورات عملية يمكن تعميمها على المسلمين وتوعيتهم عليها ، ليتكاثر عدد الأفراد القادرين على الإسهام . فحينما بدأنا البداية الأولى ــ وهناك تجربة طريفة يستحسن ذكرها ، عملنا كتاب **إسلامية المعرفة** باللغة الانجليزية ISLAMIZATION OF KNOWLEDGE وجئنا بقائمة من سبعة آلاف من علماء الإسلاميات والاجتماعيات في العالم الإسلامي وفي الغرب أيضًا ، أرسلنا إلى خمسة آلاف منهم رسالة مع نسخة من هذا الكتاب ، وطلبنا منهم دراسة الكتاب ، والنظر في هذه القضية ، ودراسة ورقة العمل المختصرة ، ودراسة الخطة المختصرة ، وإعطاءنا آراءهم أو نظرياتهم في هذا الأمر . أذكر أن أجور البريد التي صرفت في هذا الموضوع جاوزت خمس عشرة ألف دولار . كم عدد الذين أجابوا ؟ الذين أجابوا فقط مائة وثمان وثلاثين من خمسة آلاف ، منهم ستة وخمسين كتبوا أبحاثًا ، والباقي كتب رسالة يشكر.. الخ . من ستة وخمسين بحثاً لم نجد غير ثلاث أبحاث توافق المواصفات المطلوبة ، وثلاثة أبحاث أخرى من رجال المعهد نفسه ، أي أنَّ الحصيلة هي ستة أبحاث فقط يمكن أن تقدم. هذا يعطينا انطباعًا أنه ربما ضمن كل ألفين من هؤلاء نجد واحدًا من العلماء عنده الاستعداد للعطاء والإسهام . هذا في تلك الفترة .

أما الآن فنحمد الله ونشكره ، فالأمر قد تغير ، والاستجابة أصبحت أفضل بكثير ، لكن ما تزال القدرات دون المستوى المطلوب ، مما يدل على أن العقلية المسلمة نفسها تحتاج إلى عملية تغيير وتثوير كما يقال.. ثوروا القرآن لتفقهوه.. هذه العقلية لطول المران على التقليد أصبحت عقلية عوام لا تكابد

ولا تعاني ، لذلك فهي تحتاج إلى عملية غسيل وإلى عملية إثارة ومن جديد ، من أجل أن تعطي. لذلك قررنا أن تصدر هذه القضية للأمة كلها ، وأن تعرض عليها ؛ لأنها ليست قضية فئة ولا فكرة محدودة . بل هي قضية فكر وثقافة تتعلق بالأمة كلها ، فيجب العمل على تربية الأمة عليها ، ويجب العمل على استقطاب جميع الطاقات الخيرة القادرة على الإسهام فيها.

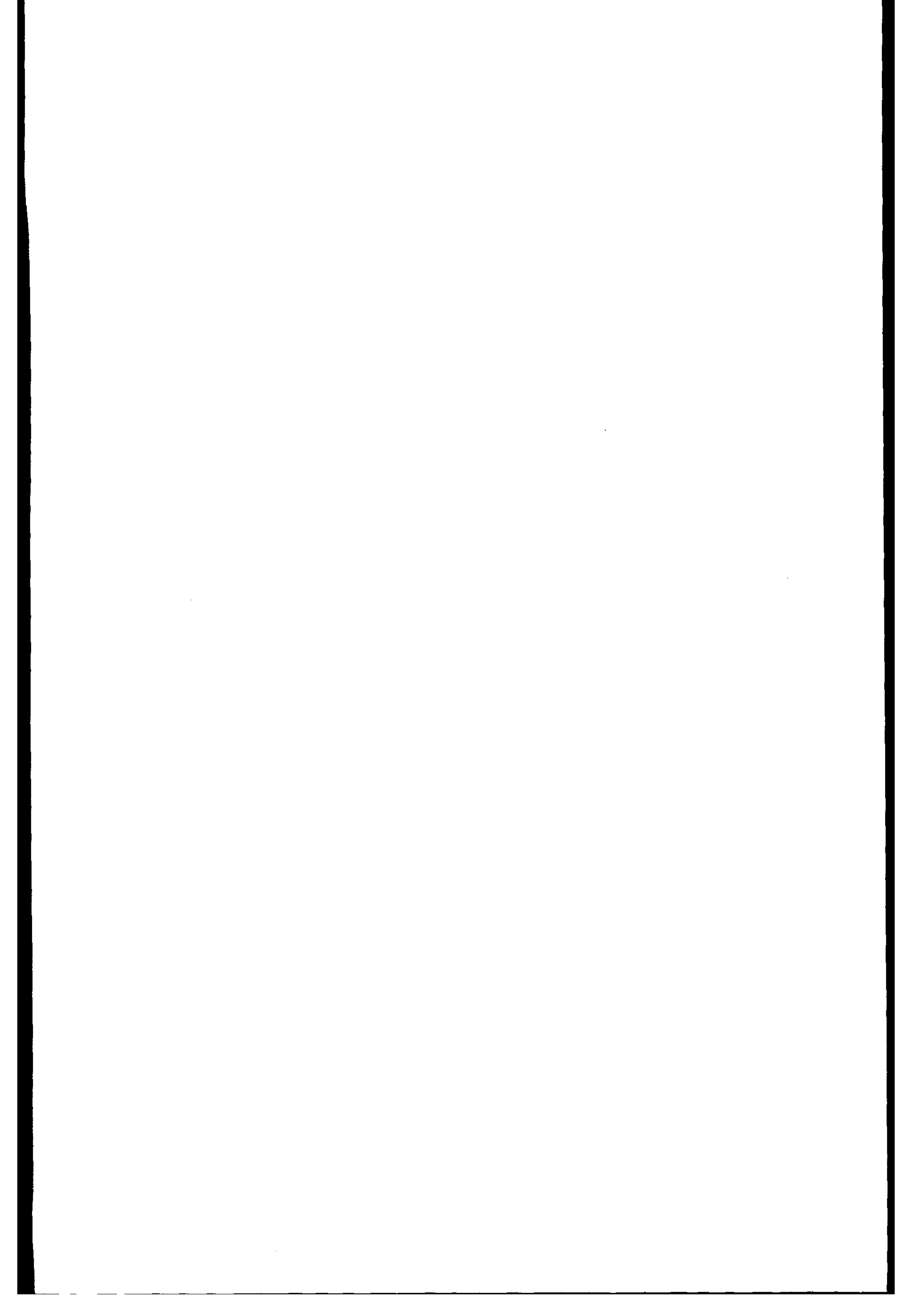
يوجد في أمريكا الآن حسب آخر احصائية اطلعت عليها حوالي سبعة وثمانين ألفًا من أبناء المسلمين يدرسون قضايا مختلفة . ومن المؤسف أن معظم هذه القضايا التي تدرس هي قضايا للعالم الغربي ، يعني يسأل طالب في العلوم ما الذي تدرسه ؟ فيقول الفطرية الفلانية من فطريات ولاية إنديانا أو مدينة شيكاغو أو مدينة واشنطن مثلا. وعندما يسأل طالب الطب ماذا تدرس ؟ يقول : أدرس المرض الفلاني من أمراض هذه الحضارة .

وعندما يسأل دارس الإنسانيات أو الاجتماعيات ماذا تدرس ؟ يقول : أدرس قبيلة بني غامد أو زهران . واللغوي ماذا تدرس ؟ يقول : أدرس اللهجة الفلانية من لهجات أفريقيا أو آسيا.. الهدف كله هو أن الطالب المسلم العربي يقدم هو أو بلده إلى هذا البلد من ستين إلى سبعين إلى مائة ألف دولار من أجل أن يتخرج في الدراسات الإنسانية والاجتماعية ، وربما يصل إلى مائتي ألف في الأقسام العلمية ، يتعرض فيها الطالب إلى خسارة شخصيته الثقافية ، وإلى اهتزاز انتمائه الإسلامي والعقيدي ، ثم يقدم بحثًا يخدم هذه الحضارة . يخدم أحيانًا سياستها ، أجهزتها ، شركاتها وعلومها ، وتكون النتيجة مجرد ورقة بأنه حصل على «البكالوريوس» أو «الماجستير» أو «الدكتوراه» ، أو يصبح موظفًا يضاف إلى جيوش الموظفين منتظرًا أن يأخذ راتبه ويذهب.

المهمة هنا خطيرة ، على المنظمات والمؤسسات الطلابية الإسلامية أن تسهم بعملية إنقاذ الشباب المسلم ، بأن تعطيه دورًا إيجابيًا مؤثرًا ، فإذا كان هذا الطالب ممن يدرسون الإنسانيات والاجتماعيات ، فنريد أن يدرس قضية من قضايا الفكر ومن قضايا المعرفة ، فإما أن تكون دراسته في معالجة لقضية أو معضلة من معضلات الفكر الإسلامي أو قضية من قضايا المنهج ، وإما أن يدرس قضية من القضايا التي يمكن أن تخدم إسلامية المعرفة أو عملية التبديل الثقافي . فإذا استطاع المعهد ومنظمات الطلبة في هذه البلاد توعية الشباب المسلم على هذا الدور نكون قد حفظنا أموال أمتنا التي صرفت على هؤلاء الطلبة من الضياع ونكون قد حفظنا طاقاتنا ، ونكون قد استخدمنا جامعاتهم من أجل خدمة قضايانا وليس العكس ، فبدلاً من أن يكون الطالب خادمًا لقضايا الحضارة الغربية نريد أن يكون المسلم والجامعة والقسم خادمين لقضايانا نحن ، فعندما تكتب بحثًا في قضية من قضايا التخلف في بلاد المسلمين ، هذ البحث يؤدي إلى التغلب على مشكلة من المشكلات في أقطار المسلمين ، تكون قد قدمت شيئًا في عملية النقل الحضاري وفي اجتياز حاجز التخلف . وعندما تعالج قضية من قضايا المنهج أو الفكر أو قضايا العلوم الإنسانية من منظور إسلامي تكون قد استخدمت مناهج هؤلاء وأجهزتهم وجامعاتهم وخبراتهم لصالح قضايا الأمة بدلاً من العكس .

هذا هو العرض السريع الذي حاولت جهدي أن أجعله موجزًا ، لكنه قد طال لعلي أن أكون فيه قد أوضحت بعض القضايا وطرحت وأثرت بعض الأمور ، ولعل النقاش أو الأسئلة التي تثيرونها تساعد على تغطية ما بقي .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، وجزاكم الله خيرًا ووفقنا وإياكم إلى ما يريده ويرضاه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



المناقشـــة :

[س] ذكرت في المحاضرة الشيخ محمد عبده وهناك آراء مختلفة عن الشيخ محمد عبده ، فما رأيك ؟ ...

[ج] مشكلة الغزو الفكري : الطريقة التي أثيرت بها وتبني بعض الأخوة المفكرين المسلمين أطروحة نعم أن هناك غزوًا فكريًا وهزيمة. أنت حينما تنظر من هذا المنظار، من هذه الزاوية، وتبدأ مراجعة أعمال الأفغاني ومحمد عبده يمكن أن تخرج بمثل هذه النتائج . فلما كان محمد عبده في تلك الفترة يتحدث عن المرأة المصرية وأن لها حقوقًا وأنه يجب أن نعنى بها وكذا وكذا ، ثم يصدر قاسم أمين كتاب تحرير المرأة ، ثم تأتي هدى شعراوي وتقود حركة تحرير المرأة في توجه غربي ، إنَّ مَنْ يربط بين هذه القضايا كلها ، ثم يقال إن محمد عبده هو الذي أملى على قاسم أمين كتاب تحرير المرأة... والحقيقة أن محمد عبده من الجرأة أن يكتب هذا بيده لو أحب ، فلماذا يكتب كتابًا بنفسه ثم ينحله لقاسم أمين أو شيء من هذا القبيل ، لكن عندما ندرس القضية دراسة تاريخية بالشكل الذي تسلسلنا فيه، نجد أن هناك في تلك المرحلة علماء مسلمين مخلصين إن شاء الله لهم نوايا طيبة، ولكن ظروفهم لم تكن تسمح إلا بهذا آنذاك، هذا القليل الذي قدموه والآراء التي تقدموا بها حين ندرسها في إطارها التاريخي سوف نجد لهم عذرًا ولا نسرف في اتهامهم . الإمام البخاري رحمه الله، رجل معروفة مكانته، حينما سئل في محنة خلق القرآن الكريم قال قولاً موهمًا يعني فهمه الحكام على أنه يوافق على أن القرآن مخلوق، وفهمه هو على أنه لا حرج فيما قاله؛ لأنه لم يكن صريحًا في هذا الأمر ،

ولذلك فإن محبيه تأولوا الأمر له ودافعوا عنه، وقالوا إنه لم يقل بهذه البدعة، ولم ينضم إلى القائلين بها، بينما قال شانئوه إن الإمام البخاري يقول هذا، وتعتبر ثغرة من الثغرات في دراستنا له. ولكن حينما تدرس الواقع وتجد أن الرجل كما يقال وضع تحت عملية إكراه وعملية ضغط ليقول شيئًا، فقال شيئًا موريًا. الرسول عليه الصلاة والسلام حينما هاجر من مكة إلى المدينة، وسأل رجل: ممن القوم؟ وأجابه أبو بكر رضي الله عنه من ماء، فأعجبت الرسول عليه الصلاة والسلام الإجابة. ذلك المسكين فهم أن هناك قبيلة وعشيرة اسمها ماء، وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه أشار إلى أن الله خلق كل شيء من ماء، فتخلص بهذه الإجابة من الموقف.

فحينما ندرس هذه القضية نضعها في إطارها الصحيح، وعندما ندرسها بهذه الطريقة نجد العذر لهؤلاء الناس، ونجد أن الأمر في إطار مقبول. أمَّا لو درسناها بطريقة الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله في كتابه «**حصوننا مهددة من الداخل**» فطبعًا سنعتبرهم عملاء وخونة وما أشبه ذلك. وأعتقد أن الشباب المسلم في الوقت الحاضر ينبغي أن يلم بهذه المراحل، وأن يعطي للضبط الزماني والمكاني والمؤثرات الخارجية والموضوعية حقها، وأن تكون دراسته لهذه الأمور دراسات مستفيضة تمكن من الرؤية السليمة والحكم المستقيم. لاشك أن جمال الدين الأفغاني في عصره ومحمد عبده في عصره أدّيا أدوارًا طيبة. مثلاً: الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ثار على البدع، وصادف أنه في أثناء ثورته على هذه الأمور كان الإنجليز يتآمرون على الدولة العثمانية، فآتي وأقول أن الشيخ محمد مثلاً إنما عمل ما عمل من أجل الإنجليز.. أعوذ بالله. هو عمل ما عمل غيرة على العقيدة ورغبة في التصحيح والإصلاح،

ولكن المصادفة فقط أنه في نفس الزمن يكون هناك عمل آخر ، لا يعني أن الرجل عمل هذا لهذا الغرض . فدراسة الظروف المختلفة لكل شيء تعطينا رؤية أقرب إلى السلامة والرأي الأفضل إن شاء الله ، ويجعلنا نستفيد من تراثنا الفكري بشكل سليم .

[س] سؤال عن الموضوع نفسه . تقول أسلمة الفكر ، فهل تقصد الفكر منهاج الفكر أو تقصد الفكر الغربي ، أم تقصد فكر المسلم .. الواقع أنا أقع بتناقض إذا قلت أسلمة الفكر المسلم ، وأقع بتناقض أكبر إذا قلت أسلمة الفكر الغربي ، لأنه مبني على مناهج وأصول مختلفة عن المناهج والأصول التي نبني عليها . وإذا تقصد أسلمة المنهج ، منهج الفكر فتصبح عندي مشكلة أخرى وهي أنا عندي الآن منهج . فلماذا أُسْلِمُ لمنهج آخر...؟

[ج] في الحقيقة أنني لم أقل أسلمة الفكر ، دائمًا أقول إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة ، وفرق كبير جدًا بين أسلمة الفكر وبين إصلاح مناهجنا . كما قلنا أن للفكر الإسلامي مصادره ، ولدينا مصدران الوحي والكون بكل ما فيه . فمصدر الوحي نستخدمه في إطار وفي مجالات محددة حددها الشارع الحكيم ، مصدر الوجود نستخدمه أيضًا في إطار ومجالات محددة حددها الشارع كذلك . نحن نعتقد أنّ هذا الفكر في فترة من الفترات قد اعترته واعترضته انحرافات وأطروحات مغايرة للأصول ، أوجدت خللاً نفسيًا وثقافيًا وتربويًا في بنائنا الفكري والنفسي والثقافي والتربوي ، مثل القضايا التي ذكرناها ومثل الانحراف في المنهج . فإصلاح مناهج الفكر يتم بأن نحدد مناهجنا بالطريقة التي ذكرنا إن مصادر فكرنا من هذين المنبعين . منهجنا في التعامل مع هذه المصادر أيضًا نوضحه ، قلنا مع النصوص لدينا المنهج الأصولي ، ومع الكون لدينا مناهجنا

ومناهج الإنسانية جمعاء. نستطيع أن نستفيد منها، وأن نتعامل معها إذا وضعناها في الإطار السليم الصحيح، فالقضايا أو المشكلات الفكرية التي أثرت في العقل المسلم وفي الإنسان المسلم وفي المجتمع المسلم وفي الكيان الإسلامي أفسدت عليه تربيته وتوجهه وثقافته، وهي تحتاج إلى إعادة طرح وإعادة عرض بحيث تقدم مفسرة محللة وجميع آثارها وخلفياتها مدروسة، كيف حدثت؟ لماذا حدثت؟ ما الآثار التي ترتبت عليها؟ كيف نستطيع معالجتها؟ هذا هو كل ما يتعلق بالأمر. أما بالنسبة للفكر الغربي فنحن نريد أن ندرسه ونطل عليه لا من المنطقين المتناقضين اللذين كنا فيهما في المرحلة الأولى، وهما إمّا موقف الإقبال والأخذ الكامل بدون تمييز أو موقف الرفض الكامل بدون تمييز، وإنما موقف الناقد المتبصر الذي لديه موازين الكتاب والسنة ومقاييسه الخاصة التي يحتكم إليها في كل هذه الأمور، فينتقده ويأخذ الصالح النقي المنسجم مع العقيدة منه، ويرفض ما أثمرته فلسفة الغرب وتوجهاته.

[س] كيف ترون أن استمرارية الحديث والسنة، نرى هذه الفكرة أسيرة النموذج الغربي كما أن التصورات ليست تصورًا جيدًا للحياة أو الوجود، مثلاً الغرب دائمًا هو مقياس لنا سواء تأخرنا أو تقدمنا وهذا بحد ذاته وقوع في الأسر أيضًا؛ لأنك إذا أخذت النموذج الغربي كقياس للوجود حتى بعد تنظيف هذا المجتمع الغربي ــ حسب رأيك ــ من الأشياء غير الصالحة لا زلت أسير هذا المجتمع الغربي. ولتوضيح الفكرة أضرب مثلاً: لنتصور أن هذه الدولة الأمريكية كل الناس بها مسلمون ملتزمون هل حققت هدف الإنسانية؟ هل سيتحقق هدفك بمجرد أن نصل إلى هذه الحضارة وننظفها؟ وأرى التأثر بالغرب في قضايا كثيرة. مرحلة الموازنة

قارنت بالغرب.. أصبح يدافع عن الإسلام لأنه أفضل من الفكر الغربي ، انتقلنا إلى مرحلة ما يدركه الغرب نطلبه أيضًا . هل هذه المراحل التي ذكرتها في الإطار الغربي وكأن كل هذه الفكرة وكل تصوراتنا وكل وجودنا منطلق من الغرب ، وأرى والله أعلم ــ أن خلافة الإنسان في هذه الأرض لها فكرة أخرى غير مرتبطة بالغرب ، ما أعنيه سواء وجد الغرب أم لم يوجد لابد أن توجد هذه الفكرة.

د. طه جابر: ماهو البديل الذي تطرحه ؟

[س] البديل أنا أرى إذا ناقشنا الغرب أو أخذناه كمقياس ، الخطر أن نكون كمن يضع قزمًا أمام عملاق يتحداه ، فالحضارة الغربية لا تتوقف مستمرة ونحن ــ إذا اخترنا هذ الحل أو هذا الطرح ــ اخترنا أن نبدأ من الصفر ، إذا أردنا أن نصل إلى هذه الحضارة مع التنظيفات التي ذكرت والله أعلم ــ هذا في المقياس الزمني ــ يحتاج إلى قرون وليس إلى سنوات ، كما أعتقد أنني فهمت من تصورك للطرح .

د. طه جابر : طيب ، ما البديل ؟

[س] البديل أن نطرح المنهج بما نعتقد من التحديد ، أن تكون نظرتنا جديدة أصلاً ولا نأخذ الغرب كمثال أو كمقياس لتحركاتنا ؛ لأنني إذا بدأت من جديد ووضعت الغرب كمقياس فمتى نصل إلى هذا .

د. طه جابر : طيب ما هو الجديد الذي تحب أن تقدمه ؟

[س] أنا لا أحب أن أقدم جديدًا أحب أن أعود أترك تراثي كما هو ، وأنطلق كما انطلق الرسول ﷺ دون أن آخذ نموذجًا موجودًا أصلاً . لابد من رفض هذا المجتمع رفضًا كاملاً ، لأن ماتعتبره

صالحًا أصلاً نابع من هذا المجتمع الغربي ومن فلسفته. ما نراه الآن صالح وبمقياسنا نابع أساسًا من الفكر الغربي.

[س] قلت إننا نرجع إلى القرآن والسنة في حل المشاكل.. مثلاً قضية «السيكولوجي» أو علم النفس، القرآن نفسه يحدد دور الإنسان كيف يفكر، وحريته، ما مشاكله، ما مرضه، القرآن نفسه عالج هذه الأمور....... . وكذلك سيرة الرسول ﷺ وتوجيهاته في تربية الأطفال، هناك أحاديث كثيرة تحل مشاكل كثيرة متعلقة بنفسية الطفل، المنهج أساسًا موجود لدينا في القرآن والسنة، وإذا رجعنا إلى الأصل نستطيع حل كل مشاكلنا.

د. طه جابر: هل خلاصة الفكرة تعتبرها تلك التي عبرت عنه الأخت؟

[س] تقريبًا. الخطورة أن ما نراه جيدًا الآن في الغرب، الخطر أنه هو أصلاً مبني على فكر وفلسفة غريبة عنَّا.

د. طه جابر: لقد شعرت أننا نحن الثلاثة، أنت والأخت وأنا متفقون فيما يلي:

القضية الأولى: اتخاذ الكتاب والسنة منطلقًا في تصوراتنا وفي معالجتنا لقضايا العلوم النفسية والاجتماعية ولنا منظورنا. أظن هذا موضوع اتفاق.

القضية الثانية: النظر في تراثنا.

القضية الثالثة: النظر في هذه الحضارة وفيما أفرزته وفي فكرها ومناهجها نظرة الناقد البصير ومحاكمتها إلى الكتاب والسنة لا أن نحتكم إليها.

القضية الرابعة: وهي قضية المنهج الذي عرضناه، المنهج الذي

عرضناه هو أن ننظر إلى مصادر المعرفة ونعيد النظر لها . الغرب يعتبر مصدر المعرفة الوجود وحده والحس والتجربة . أنا أعتبر مصادر المعرفة الوحي بشقيه الكتاب والسنة والوجود كذلك بالعقل بالحس بالتجربة.. فأين موضع اتفاقي مع المنهج الغربي؟ أنا لم أتفق معه في أي شيء من الأشياء. أنا أتفقت فقط في شيء واحد وهو أن التراث الذي أراه حولي ، هذا تراث إنساني، الغربي أسهم فيه والمسلم وغيره . أنا عليّ أن أنظر فيه نظرة الناقد البصير وأحاكمه إلى الكتاب والسنة . فالإمام ابن تيمية عليه رحمة الله حينما جاء إلى المنطق الأرسطي ـــ على سبيل المثال ـــ درسه وفحصه ثم نقده وكتب فيه كتابين كتابًا اسمه «**نقض المنطق**» و كتابًا اسمه «**الرد على المنطقيين**» ثم عرض رحمه الله إلى كثير من قضايا المنهج في كثير من كتبه المختلفة ، فهل تعني أنني يجب أن أرفض هذا كله ولا أنظر فيه ولا أفكر في معرفة ما قد يكون فيه من إيجابيات .

[س] آتي بمثال : الفلسفة لما وصلت إلى المسلمين نشأ علم الكلام ونشأت الفرق ونشأت (*اللخبطة*) التي لن نتعداها في العقائد . لماذا ؟ لأن الناس الذين أحضروا الفلسفة اعتقدوا أن هذا جيد من الحضارة ، هذا جزء طيب من الحضارة الأخرى اعتقدوا أنهم بذلوا جهدًا واشتغلوا فأخذوا الجيد من الحضارات الأخرى ، هذا جيد أنظر ماذا نتج عنه . الفِرَقُ وغيرها. ماهو الضمان لك أنت وأنا وغيرنا من الإخوة الحاضرين أنه نأتي بالجيد أو ما نراه جيدًا من الحضارة الغربية وبعد ألفي سنة نضع الأمة في مشكلات جديدة. ما هو الضمان؟

د. طه جابر : الضمان هو التحاكم إلى الكتاب والسنة باستمرار .

[س] الذين جاءوا بالفلسفة من المجتمعات الأخرى ـــ والله أعلم ـــ البعض

لا شك فيهم كانت نواياهم صادقة واحتكموا إلى الكتاب والسنة واجتهدوا وأخطأوا .

د. طه جابر : أنا أولاً أصحح لك قضية أنهم أخذوا من الفلسفة ما اعتقدوه . أبدًا ، الفلسفة يا أخي لها قصة ودخولها إلى عقولنا له قصة أخرى تستطيع أن تضطلع عليها في مراجعها. والفلسفة هذه ــ المأمون عفا الله عنه إن حسنت النوايا ــ كان قد حرص وأيضًا لقضية تحتاج إلى تفسير ، قضية من قضايا الفكر ، الرجل الذي كان يتبنى مذهب الاعتزال وله موقف يمثل مايسمى بالعقلانية أو ما يقابل العقلانية الآن ، وأراد أن ينتصر في معركته على أهل الحديث وأهل النص ، وبلغه أن في التراث اليوناني أشياء إذا تُرجمت وشاعت مفاهيمها بين المسلمين سيجعل لمذهبه ولآراء جماعته قبولاً ، فعهد بالترجمة ــ لم يكن هناك للأسف الشديد مترجمين مسلمين ــ وفي السنة النبوية أن الرسول عليه الصلاة والسلام من أوائل ما بدأ به بدأ يصطنع المترجمين من أصحابه ، جاء زيدًا وطلب منه أن يتعلم السريانية ، وطلب من آخرين أن يتعلموا العبرية ، وكان يدعو لهم أن ييسر الله لهم ويسهل عليهم. المأمون عهد بالترجمة إلى اليهود والنصارى ، ماكان هناك أي مترجم إلا يهودي أو نصراني في عهد المأمون ، جماعة اسحق بن ميمون و غيره من اليهود والنصارى والصابئة ، هؤلاء الذين كانوا يتقنون اللغات الأخرى اليونانية والسريانية ، فترجموا أسوأ مافي التراث اليوناني وغيره ، وترجموا له القضايا التي تتعلق بمشكلات العقول *(التعبانة)* التي لم تهتد بهداية الوحي على الإطلاق وترجموا له قضايا أخرى .. هناك قصة طريفة ، يقولون إنه كان هناك دير أو مكان للرهبان قد وضعوا فيه مجموعة من الكتب لأنها تهدم المسيحية وكذا لأنها كتب فلسفية

(*وطينوها*) اقفلوا عليها نهائيًا. وقيل: جماعة اسحق بن ميمون هدموا هذا البناء، وأخرجوا هذه الكتب التي كانت المسيحية تهابها وترجموها إلى التراث الإسلامي. ما كانت العملية عملية انتقاء، وإنما كانت عملية ترجمة للأسف الشديد غير منضبطة بضوابط، كان لها أسوأ الآثار، ودخلت جزءًا في عملية الصراع السياسي والصراع الاجتماعي الدائر في تلك الفترة، هي غير ما نحن فيه على الإطلاق.

أما ما نحن فيه ، نحن أولاً نجعل الكتاب والسنة هي الثوابت الأصول، هي المراجع التي نريد أن نستمد منها فكرنا وثقافتنا ونجعلها مرجعنا في كل شيء. نرجع إلى تراثنا الإسلامي ونراجعه، ما انسجم منه مع توجيهات الكتاب والسنة ومناهجهما أُخذ منه، ما صادم شيئًا من ذلك أهمل. كذلك نرجع إلى هذا التراث المعاصر بقطع النظر غربي أو شرقي.. لا نسأل في ماهيته، لأن عندنا النور ﴿...**قد جآءكم من الله نورٌ وكتاب مبين**﴾ المائدة: ١٥ فأنا أصلاً أريد أن أنسى أهو غربي أو شرقي أو سواه لأنني لن أتعامل معه من هذا المنظور، أنا سأتعامل مع الموجود الفكري والحضاري والثقافي من نظرة الإنسان المتعالى الذي له مراجعه ومصادر هدايته ويحاكم كل شيء إليها، وبالتالي فإنه لديَّ الحماية الكافية وعندي الأمن الكافي، الذي يحميني من أي انحراف أو ما يمكن أن يشكل خطرًا.

أما قضية سد الذرائع المتوقعة فأيضًا في العقل المسلم قضية الاحتياط والخوف لها مشكلة أخرى هي مشكلة من مشاكلنا الفكرية. عليَّ إذا كان الشيء صحيحًا أو سليمًا أو مقبولاً لا يعارض كتابًا ولا سنة ولا يصطدم بأصل من أصول الإسلام عليَّ

أن أقبله . لماذا أخاف منه وافترض احتمالات قد تقع بعد مائة أو مائتين أو ثلاثمائة سنة ؟ هذه الاحتمالات غير واردة ، ونحن نأخذ سد الذرائع كدليل حينما يكون الشيء ذريعة إلى مفسدة متحققة ، لكن حينما تكون المسألة مجرد فرض أو مجرد احتمال فالفرض والاحتمال لا يفترض علينا التخلي عن شيء سليم أو صحيح أو أكيد موجود . أنا كنت أريد أن تكون أفكارنا واضحة ، ليس هناك شيء اسمه التوفيق بين الحضارة الغربية أو الفكر الغربي والفكر الإسلامي ، أو نهدم السور بين الثقافة الغربية والفكر الإسلامي — معاذ الله — وإنما ما نحاوله هو كما قلت معتمد على الكتاب والسنة وتصنيفهما وإعادة قراءة كل منهما لمعرفة توجيهاتهما في هذه المجالات وهذه القضايا . دراسة تراثنا كله بفرقه ، بكل ما فيه ، الدراسة الناقدة المحاكمة إلى كتاب الله وسنة رسوله ، دراسة التراث الإنساني ، استخلاص منهج للتعامل مع قضايا الحضارة والثقافة نستند فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، بهذا الشكل أظن هذا منهجًا إسلاميًا ما أشعر أن فيه أي تناقض مع الإسلام في شيء.

الموزعون المعتمدون لمنشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المملكة العربية السعودية: الدار العالمية للكتاب الإسلامي ص.ب ٥٥١٩٥ الرياض ١١٥٣٤
تليفون: 0818-465-1 (966) فاكس: 3489-463-1 (966)

المملكة الأردنية الهاشمية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص.ب. ٩٤٨٩ ـ عمان
تليفون: 639992 (6-962) فاكس: 611420 (6-962)

لبنان: المكتب العربي المتحد ص.ب. 135788 بيروت.
تليفون 807779 (1-961) تيلكس: 184-860 (1-961) فاكس: C/O (212) 478-1491

المغرب: دار الأمان للنشر والتوزيع، 4 زنقة المامونية الرباط
تليفون: 276-723 (7-212) فاكس: 216-723 (7-212)

مصر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ٢٦ـ ب شارع الجزيرة الوسطى الزمالك ـ القاهرة
تليفون: 9520-340 (2-20) فاكس: 9520-340 (2-20)

الإمارات العربية المتحدة: مكتبة القراءة للجميع ص.ب ٣٢ (سوق الحرية المركزي الجديد)
تليفون: 901-663 (4-971) فاكس 084-690 (4-971)

في شمال أمريكا:

السعداوي/ المكتب العربي المتحد
SA'DAWI/UNITED ARAB BUREAU
P.O. Box 4059, Alexandria, VA 22303 USA. Tel: (703) 329-6333 Fax: (703) 329-8052

ـ خدمات الكتاب الإسلامي
ISLAMIC BOOK SERVICE
10900 W. Washington St. Indianapolis, IN 43231 USA
Tel: (317) 839-9248 Fax: (317) 839-2511

بريطانيا: المؤسسة الإسلامية
THE ISLAMIC FOUNDATION
Markfield Da'wha Center, Ruby Lane Markfield, Leicester LE6 ORN, U.K.
Tel: (44-71) 272-5170 Fax: (44-71) 272-3214

ـ خدمات الإعلام الإسلامي
MUSLIM INFORMATION SERVICES
233 Seven Sisters Rd. London N4 2DA, U.K.
Tel: (44-71) 272- 5170 Fax: (44-530) 244-946

فرنسا: مكتبة السلام
LIBRAIRE ESSALAM
135 Bd. de Ménilmontant. 75011 Paris Tel: (33-1) 43 38 19 56 Fax: (33-1) 43 57 44 31

بلجيكا: سيكومبكس
SECOMPEX. Bd. Mourice Lemonnier; 152
1000 Bruxelles Tel (32-2) 512-4473 Fax (32-2) 512-8710

هولندا: رشاد للتصدير
RACHAD EXPORT, Le Van Swinden Str. 108 11
1093 Ck Amsterdam Tel: (31-20) 693-3735 Fax (31-20) 693-8827

الهند:
GENUINE PUBLICATIONS & MEDIA (Pvt.) Ltd.
P.O Box 9725 Jamia Nager New Delhi 100025 India
Tel: (91-11) 630-989 Fax: (91-11) 684-1104